شرح

قصيدة الواعظة

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

دار الخزانة

الكويت:

٠٠٩٦٥ ٩٠٩٠٩٢١١ -٠٠٩٦٥ ٥٥٩٥٧١٠٣

المملكة العربية السعودية:

٠٠٩٦٦٥٦٨٤٨٠٠١٩ -٠٠٩٦٦٥٦٢٠٠٠٧٣٣

dar.alkhezanah@gmail.com

شرح
قصيدة الواعظة

الدكتور سالم العجمي
عضو هيئة التدريس بجامعة الكويت

دار الخزانة

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلَّا علىٰ الظَّالمين، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ عبده ورسوله مُحمَّدٍ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بَعدُ:

فهذا شرح مختصر علىٰ قصيدتي: «**الواعظة**»؛ التي يَسَّر الله لي نظمها وكتابتها، بفضله ومَنِّه وكرمه، في الثامن والعشرين من شهر ربيعٍ الثاني عامَ ألفٍ وأربعمائة وواحدٍ وأربعين للهجرة، وقد حَوَت جُملَةً من الآداب والمواعظ التي تتأكد الحاجة إليها، وتشتاق النفوس لإيرادها.

وكان أصل هذه الفكرة أنَّني قرأتُ بعض المنظومات التي خطَّها بعض الشعراء المتقدِّمين، فأعجبني ما تضمنته من الحِكَم والمواعظ، فهممت أن أضعَ عليها شرحًا ميسَّرًا يُوضِّح معانيها، ثُمَّ لمَّا علمتُ من فقري وحاجتي إلىٰ الأجر الباقي، حدَّثت نفسي أن أكتب قصيدةً تخصُّني تحوي آدابًا ومواعظَ، مع سؤالي وافتقاري لله عَزَّوَجَلَّ أن يكتب لها البركة والانتشار، وأن يرزقني الإخلاص والقبول.

فكتبتُ هذه القصيدة، ثمَّ ظهر لي ما كنتُ عزمت عليه آنفًا من وضع شرحٍ ميسَّرٍ يُوضِّح المعاني، ويُبيِّن سبب الالتفات والاهتمام لِمَا ذُكِرَ مِنَ الآداب

والمواعظ التي تضمنها كلُّ بيت، فعزمت علىٰ ذلك، ثمَّ شَرَعْتُ في كتابة ذلك مُستمدًّا العون والسداد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكان هذا الشرح المتواضع.

ولا أدَّعي أنَّني في هذه القصيدة حُزْتُ مراتب السَّبْق، أو نطقت بما لَمْ تنطق به الأوائل، بل هو عملٌ لا يخلو من التقصير والخلل، لكنني أرجو مِنَ الله أن يدخره لي بين يديه يوم لقائه، وأن يجعله لي لسان صِدْقٍ في الآخِرين، وأن يكتب له البركة، ومن أحسن الظن بالله سبحانه وأعظم الرجاء به، أعطاه فوق ما يظن ويرجو.

هذا؛ وإنَّني سأقوم بإيراد القصيدة كاملة، ثم أعقب ذلك بذكر أبياتها مفرَّقة، مع بيان ما حواه كل بيت من المعاني والآداب، علىٰ حسب ما ييسره الله لي ويوفقني إليه.

أسأل الله سبحانه التوفيق والسداد، والهدىٰ والرشاد، وأن يجعلنا هداة مهتدين، غير ضالين ولا مُضِلِّين.

وصلَّى الله وسلَّم على عَبدِهِ ورسُولهِ مُحمدٍ، وعلى آلهِ وصَحبِهِ أجمَعينَ.

كَتَبَهُ

الدُّكتُور سَالِم العَجمِي

عُضو هيئةِ التدريس بكُليَّة الشريعَة

بجامعَة الكُوَيت

٩ شعبان ١٤٤١هـ - ٣/٤/٢٠٢٠م

قَصِيدَةُ الوَاعِظَةِ

مَـا بَـالُ قَلْـبِكَ بِالـنَّوَىٰ يَـتَأَلَّمُ ... هَجَرَتْكَ أَمْ شَحَّتْ بِوَصْلِكَ مَرْيَمُ؟!

قَد كُنْتَ تَعْشَقُهَا وَلَم تَحْفَلْ بِمَنْ ... بَذَلُوا إِلَيْكَ النُّصْحَ لَو تَتَفَهَّمُ

لَمَّا رَأَتْكَ مُتَيَّمًا بِغَرَامِهَا ... أَسْقَتْكَ أَقْسَىٰ مَا يَذُوقُ مُتَيَّمُ

كَمْ عَاهَدَتْكَ بِأَنْ تَفِي بِوُعُودِهَا ... ثُمَّ انْثَنَتْ هَجْرًا وَأَنْتَ مُحَطَّمُ!

عَجَبًا لِمَن رَامَ الوِصَالَ وَقَلْبُهُ ... مَا زَالَ فِي نَارِ الهَوَىٰ يَتَضَرَّمُ

مَا زِلْتَ تَرْجُو أَنْ تَنَالَ وِصَالَهَا ... أَوَمَا اعْتَبَرْتَ بِحَالِ قَوْمٍ قَدْ عَمُوا؟

فَاسْمَعْ هُدِيتَ نَصِيحَتِي مُتَفهِّمًا ... وَاعْمَلْ بِهَا إِنَّ النَّصِيحَةَ مَغْنَمُ

كُن فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا مُتَوَسِّطًا ... وَاحْذَرْ زَمَانَكَ أَنْ يَفُوتَ وَتَنْدَمُ

وَخُذِ المَكَارِمَ إِنْ أَرَدْتَ فَضِيلَةً ... فَالمَرْءُ يَحْيَا بِالجَمِيلِ وَيَنْعَمُ

وَدَعِ القَبِيحَ مِنَ الفِعَالِ فَإِنَّهُ ... يُرْدِي الكَرِيمَ مِنَ الرِّجَالِ وَيَحطِمُ

سَارِعْ إِلَىٰ العَلْيَا وَلَا تَكْسَلْ فَمَا ... سَبَقَ الكِرَامَ إِلَىٰ الفَضَائِلِ نُوَّمُ

وَإِذَا قَصَدْتَ إِلَىٰ المَعَالِي فَاجْتَنِبْ ... قَولَ العَذُولِ فَلَا تُطِعْهُ وَتُهزَمُ

وَإِذَا أَرَدْتَ الفَوْزَ فِي طَلَبِ العُلَا ... فَدَعِ الأَمَانِيَ أَوْ يُقَالُ وَيُزْعَمُ

وَالْبَسْ دَوَامَ الحَالِ ثَوْبَ مَعَزَّةٍ ... إِنَّ العَزِيزَ مِنَ الأَنَامِ مُقَدَّمُ

كُنْ هَيِّنًا سَهْلًا قَرِيبًا لَيِّنًا ... يَجْزِيكَ رَبِّي بِالسُّرُورِ وَيَرْحَمُ

وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلأَنَامِ تَوَاضُعًا ... تَسْلَمْ مِنَ الخُلُقِ الذَّمِيمِ وَتُكْرَمُ

لَا تُكْثِرِ الشَّكْوَىٰ وَكُنْ مُتَجَلِّدًا ... فَالصَّبْرُ عَوْنٌ فِي البَلَاءِ وَمَرْهَمُ

وَاجْعَلْ وَفَاءَكَ لِلصَّدِيقِ سَجِيَّةً ... فَالصَدُّ وَالهِجْرَانُ جُرْحٌ مُؤْلِمُ

أَسْرِعْ بِحَاجَاتِ الخَلَائِقِ مُخْلِصًا ... تَحْيَا سَعِيدًا فِي الحَيَاةِ وَتَنْعَمُ

وَدَعِ الْفُضُولَ مِنَ الْكَلَامِ فَإِنَّهُ ... سُمٌّ زُعَافٌ لَوْ عَلِمْتَ وَعَلْقَمُ

وَالصِّدْقُ زَيْنٌ فِي المَحَافِلِ كُلِّهَا ... وَالكِذْبُ نَقْصٌ فِي الطِّبَاعِ وَمَأْثَمُ

وَتَحَلَّ بِالصَّمْتِ الطَّوِيلِ تَجَمُّلًا ... فَالمَرْءُ يَنْجُو بِالسُّكُوتِ وَيَسْلَمُ

وَإِذَا نَطَقْتَ فَلَا تَكُنْ مُتَفَحِّشًا ... فَالفُحْشُ عَيْبٌ فِي الْكَلَامِ وَمَغْرَمُ

وَامْزَحْ وَلَا تَجْعَلْ مُزَاحَكَ عَادَةً ... فَالْمَزْحُ يُزْرِي بِالعُقُولِ وَيَهْضِمُ

وَاصْحَبْ مِنَ الأَخْيَارِ كُلَّ مُسَدَّدٍ ... مَا زَالَ يَبْذُلُ نُصْحَهُ وَيُقَوِّمُ

وَاحْذَرْ مُصَاحَبَةَ المُسِيءِ فَإِنَّهُ ... يُرْدِي البُيُوتَ الشَّامِخَاتِ وَيَهْدِمُ

وَاحْذَرْ مُؤَاخَاةَ الحَسُودِ وَإِنْ بَدَا ... حُلْوَ اللِّسَانِ وَوَجْهُهُ مُتَبَسِّمُ

فَهُوَ اللَّئِيمُ وَإِنْ تَظَاهَرَ نَاصِحًا ... يُبْدِي القَبِيحَ وَلِلْمَحَاسِنِ يَكْتُمُ

وَالجُودُ سَتْرٌ لِلعُيُوبِ وَبَذْلُهُ ... يَشْفِي الجُرُوحَ الغَائِرَاتِ وَبَلْسَمُ

فَتَرَىٰ الكَرِيمَ إِلَىٰ النَّدَىٰ مُتَحَبِّبًا ... بَذْلًا وَلَا يُفْشِي وَلَا يَتَكَلَّمُ

وَتَـرَىٰ البَخِـيلَ وَقَـدْ تَكَاثَـرَ جَمْعَـهُ ... مَـا زَالَ يَطْمَـعُ فِـي الثَّـرَاءِ وَيَحْلُـمُ

قَـدْ بَـاتَ يَجْمَـعُ غَـافِلًا حَتَّـىٰ دَنَـا ... وَقْـتُ الـرَّحِيلِ فَمَالُـهُ مُتَقَسِّمُ

وَعَلَـيْكَ بِالإِنْـصَافِ وَالْـزَمْهُ تَفُـزْ ... وَانْطِـقْ بِـهِ دَوْمًـا وَلَا تَتَلَعْـثَمُ

وَالعَـدْلُ بَـيْنَ الـنَّاسِ أَنْـبَلُ غَايَـةٍ ... فَاظْفَـرْ بِهَـا وَاحْـذَرْ تَجُـورُ وَتَظْلِـمُ

أَحْـسِنْ لِجَـارِكَ إِنْ أَقمْـتَ بِمَنْـزِلٍ ... وَاصْـبِرْ إِذَا وَقَـعَ الأَذَىٰ مَـا عِـشْتُمُ

وَالـسَّمْتُ بُـرْهَانُ العُقُـولِ وَحِـصْنُهَا ... يَعْلُـو بِـهِ قَـدْرُ الْكَـرِيمِ وَيَعْظُـمُ

وَتَجَـارِبُ الأَزْمَـانِ أَعْظَـمُ وَاعِـظٍ ... وَالْمَـرْءُ مِـنْ أَخْطَائِـهِ يَـتَعَلَّمُ

وَاجْبُرْ خَوَاطِرَ مَن أَتَوْكَ وَقَد شَكَوْا ... فَـالهَمُّ يُـزْرِي بِالحَلِـيمِ وَيُلْجِـمُ

وَالـنَّاسُ إِنْ خَالَطْـتَهُم عَجَـبًا تَـرَىٰ ... مِـثْلُ الطُّـيُورِ عَلَـىٰ الفَـرَائِسِ حُـوَّمُ

وَالمَـرْءُ لَـوْ أَمْـسَىٰ وَأَصْـبَحَ نَائِـيًا ... سَـيَنَالُهُ طَـيْشُ الكَـلَامِ وَيَـأْلَمُ

وَالـنَّاسُ لَـن تَرْضَـىٰ بِسَعْيِكَ فَاحْتَكِمْ ... أَيْـنَ الَّـذِي رَضِـيَ الْخَلَائِـقُ عَـنْهُمُ؟

فَارْفُـقْ بِنَفْـسِكَ لَا يَـزِيدُ عَـنَاؤُهَا ... فَـتَمَلَّ مِـنْ طُـولِ الطَّـرِيقِ وَتَـسْأَمُ

وَسَـلَامَةُ الـصَّدْرِ الـسَّلِيمِ غَنِـيمَةٌ ... مَـنْ حَازَهَـا يُـسْقَ النَّعِـيمَ وَيُطْعَـمُ

وَإِذَا هَمَمْـتَ بِبُغْـيَةٍ فَاظْفَـرْ بِهَـا ... وَاقْطِـفْ ثِمَـارَكَ إِنْ صَـفَا لَـكَ مَوْسِـمُ

وَالعَجْـزُ يَمْـنَعُ مِـنْ بُلُـوغِكَ رُتْـبَةً ... يَمْـضِي الـرِّفَاقُ وَلَـمْ تَـزَلْ تَتَبَـرَّمُ

وَالابْـنُ غَـرْسٌ فَاجْـتَهِدْ فِـي سَـقْيِهِ ... تُدْمِـي بِـهِ أَنْـفَ العَـدُوِّ وَتُـرْغِمُ

وَاعْلَـمْ بِـأَنَّ العُمْـرَ طَـيْفٌ عَابِـرٌ ... سُـرْعَانَ مَـا أَوْقَاتُـهُ تَتَـصَرَّمُ

ثُـمَّ الـرُّجُوعُ إِلَـىٰ إِلَهِـكَ مُفْـرَدًا ... فَاعْمَـلْ لِنَفْسِكَ فِـي رَحِـيلِكَ تَغْـنَمُ

وَارْفَـعْ أَكُفًّـا بِالـضَّرَاعَةِ سَـائِلًا ... حُـسْنَ الْخِـتَامِ وَتَـوْبَةً لَا تُعْـدَمُ

قَـدْ بَـاءَ بِالْخُـسْرَانِ عَـبْدٌ غَافِـلٌ ... مَـعْ عِلْمِـهِ أَنَّ الـرَّحِيلَ مُحَـتَّمُ

يَـا رَبِّ فَـضْلَكَ إِنَّ جُـودَكَ وَاسِـعٌ ... عَظُمَـتْ خَطَايَانَـا وَعَفْـوُكَ أَعْظَـمُ

فَاغْفِـرْ لَـنَا مَـا كَـانَ مِـنْ هَفَوَاتِـنَا ... إِنَّ القُلُـوبَ مِـنَ الخَطَـا تَتَـثَلَّمُ

يَـا رَبِّ وَارْزُقْـنَا شَـفَاعَةَ أَحْمَـدٍ ... صَـلُّوا عَلَـىٰ خَيْـرِ الأَنَامِ وَسَـلِّمُوا

شرح القصيدة

مَـــا بَـــالُ قَلْـــبِكَ بِالـــنَّوَىٰ يَـــتَأَلَّمُ هَجَرَتْكَ أَمْ شَـحَّتْ بِوَصْـلِكَ مَرْيَمُ؟!

بدأ هذا النظم بأبيات يظهر فيها التغزل، وهذه طريقة قد جرىٰ عليها بعض الشعراء، حيث إنَّهم إذا أرادوا الدخول في شيء مهم أتَوا بما يدلُّ علىٰ التغزل من أجل أن تتشوَّق النفسُ، وتستعد لفهم ما يُذكر بعد ذلك، كما وقع ذلك من كعب بن زهير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في قصيدته التي ألقاها بين يدي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وكان مَطلَعُها:

بانـتْ سعادُ، فقَلبِـي اليـومَ مَتْبُولُ مُتـيَّمٌ إثـرَها، لَـمْ يُفْـدَ مَكْـبُولُ

وكما في قصيدة صالح بن عبد القدوس -أحد شعراء الدولة العباسية- في المواعظ والحكم، حيث افتتحها بقوله:

صَـرَمَت حِبَالَكَ بَعد وَصلِكَ زَينبُ والدَّهـــرُ فِـــيهِ تَـــصرُّمٌ وتقلـــبُ

ومن هذا القبيل ما صنعه الشيخ علي بن حسين بن محمد بن عبد الوهاب في مرثيته للدولة السعودية الأولىٰ في الدِّرعية، التي قامت علىٰ التوحيد والدعوة إلىٰ الإسلام الصحيح سنين عديدة، حتىٰ تسلَّط عليها الغُزاة المعتدون من أهل البدع، فأسقطوها؛ فرثاها بقصيدة من أجمل القصائد وأروعها، وقد

افتتحها بقوله:

خليلَيَّ عُـوجَا عـن طـريقِ العواذلِ بمهجُـورِ ليلـىٰ فابْكـيا فـي المَـنازلِ
لعـلَّ انْحِـدارَ الدَّمـعِ يُعْقِـبُ راحـةً مـن الـوجدِ أو يَـشفِي غلـيلَ الـبلابِلِ

والذي دفع الشعراء إلىٰ هذه الطريقة من النظم، أنَّ حضور النفس بمثل هذه الأوصاف وهذا التعلق، يُهيِّئُها ليُلقَىٰ إليها أمرٌ مطلوب.

وقد جُعِل هذا البيت في مقدمة هذا النظم علىٰ هيئة تساؤل؛ لأنَّ هذا الأسلوب فيه استرعاء للانتباه، وكأنه يريد من المُخاطَب أن يفطن إلىٰ أهمية ما سيُلقيه إليه بعد ذلك.

فتساءل: ما بال قلبك بالنَّوَىٰ -وهو البُعدُ- يتألم، وهل كان ذلك بسبب هجران مريم لك، أم أنها شَحَّت بوصلها بعد أن كانت تجود به؟

وذلك أن أشد ما يُعانيه من تعلَّق بمعشوقِهِ أن يبدِّل وصلَه إلىٰ انقطاع، أو أن يبخل عليه بلقائه، فيطعَم بسبب ذلك مُرَّ العيش، وكدر الشراب، فيبقىٰ خائفًا وَجِلًا، متذبذبًا، حاله بين الوصل والصَّد، والتجني والهجران، والاستعطاف والاشتياق، والقلق والفراق، فيفسد قلبه، ويمضي كالسكران الذي لا يستفيق بعد طول الأمد إلا علىٰ هلاك نفسه.

❀❀❀

قَـد كُـنْتَ تَعْـشَقُهَا وَلَـم تَحْفَـلْ بِمَـنْ بَذَلُـوا إِلَـيْكَ النُّـصْحَ لَـو تَـتَفَهَّمُ

لقد وقعت بحبها حتىٰ أخذت بتلابيب قلبك، واستولت علىٰ فكرك حتىٰ صِرتَ عاشقًا متيَّمًا، ولمَّا رأىٰ الناصحون ما آلَ إليه أمرك توجهوا إليك بالنصح؛ طمعًا أن يكون لك فهم وإدراك لمَغَبَّة ما أنت عازم عليه وسائر إليه.

فَلَم تَحْفَلْ؛ أي: تهتمَّ بالأمر وتأخذه بعين الاعتبار، بسبب ما وقعت فيه من العشق الذي أغلق عنك باب الإدراك والتمييز.

والعشق من أضر الأمور علىٰ النفوس، وأشدها فتكًا، داءٌ أعيا الأطباءَ دواؤه، وعزَّ عليهم شفاؤه، فهو الدَّاء العضال، والسم القتَّال، الذي ما عَلَقَ بقلب إلَّا وعزَّ علىٰ الورىٰ خلاصه من أسره، ولا اشتعلت ناره في مهجة إلَّا وصعب علىٰ الخلق تخليصها من ناره[1].

والعشق وهو الحب المفرط الذي يُخاف علىٰ صاحبه منه، يلتذ صاحبه أول ما يذوقه، نشوة بشعور جديد، ولا يعلم أنَّ تلك اللذة أجلب شيء للهموم والغموم عاجلًا وآجلًا.

وكلما قوي ازداد صاحبه في التمادي والطمع والحرص علىٰ طلبه، حتىٰ يؤديه ذلك إلىٰ الغم والقلق، وفساد الفكر وتعطيل العقل، حتىٰ يرجو ما لا يكون، ويتمني ما لا يتم، ويتصرف بعد ذلك بما لا يظن أن يصدر هذا من مثله، ويصبح كالسكران الذي لا يعلم ما يقول، ولا يعي ما يفعل، ولا يزال يتخبط في سلوكه

(١) انظر: «الجواب الكافي» لابن القيِّم (ص٣٥٣).

حتىٰ يعاين هلاكه، ولذلك قيل: إذا اقتحم العبد بحر العشق ولعبت به أمواجه فهو إلىٰ الهلاك أدنىٰ منه إلىٰ السلامة[١].

وأنت ترىٰ واقعَ الحال، فكم من عاشق أتلف لأجل معشوقه مالَه وعرضَه ونفسَه، وضيع أهله ومصالح دينه ودنياه.

فالعشق هو الداء الذي تذوب معه الأرواح، ولا يقع معه الارتياح، والبحر الذي من ركبه غرق، حيث لا ساحل له ولا نجاة منه، تقدَّم إليه بعض الناس فرحًا بواقع جديد، فعاد بالخسران الأكيد، وعانىٰ من البأس الشديد.

وظنَّ بعضهم أنها مرحلة عابرة، وفترة لا تطول، ولهو ومزاح، فلمَّا عاينوا الأمر وتمكن من قلوبهم، طلبوا النجاة فلم يجدوا إليها من سبيل، وأشدُّ ما فيه وأقسىٰ، أنه شعور كلما ظننت أنه خبا وانطفأ، بقي له حرارة في القلوب تذيب الأجساد، وتكمن كُمُون النار في الحجر.

وإنما كان سبب ورود ذلك علىٰ القلوب أنه صادف نفوسًا فارغة، فاحتلَّها وتمكن منها؛ لذا قال بعض الفلاسفة: العشق حركة النفس الفارغة[٢]، وإطلاق النظر في الغادين والرائحين، حتىٰ طمعت النفس فيما لم يكن لها، فإذا لم تحصل عليه زاد عذابها، وتمكن الداء منها، والعجب ممن علم أنَّ في هذا الأمر حتفه وموته ثمَّ سار إليه مختارًا، وأوقد في قلبه نار الولع، وأكثر من يقع في هذا

(١) انظر: «روضة المحبين» لابن القيِّم (ص١٣٧).
(٢) انظر: «روضة المحبين» (ص١٣٧).

الداء، من فتح له أبواب قلبه ليلج إليه ويتمكن منه، وذلَّل الأسباب التي من شأنها أن تجعله أسيرًا له، ويتمثل ذلك في أحوال الشعراء، فإنهم حين ألزموا قلوبهم بالتفكير بالنساء، ووصفهن والتغزل فيهن، مال طبعهم إلىٰ النساء، فضعفت قلوبهم عن دفع الهوىٰ، واستسلموا إليه منقادين[١].

والعشق قائدٌ إلىٰ الذلِّ والهوان، يُجَرِّد المرء من سمته وثقل طبعه، حتىٰ يكون كخفة الطير أمام من يهوىٰ وما يطلبه منه، وقد قيل: إنما الهوىٰ هوان، ولكنه خولف باسمه، وإنما يعرف ذلك من استبكته المعالم والطلول، ولا يطيق ذلك ولا يفعله إلَّا العاشق، فإنه أذل ما يكون إلىٰ معشوقه ليحصل علىٰ رضاه، ويثبت استمراره معه لئلَّا ينتقل عنه، فتبًّا لعيش لا يقوم إلَّا علىٰ هذا الذلِّ.

وقد بيَّن العلماء العارفون ما في العشق من أضرار عظيمة[٢]، يضيِّع بسببها المرءُ مصالحه الدينية والدنيوية، ويجني من المفاسد الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما كان يظن فيه من المصلحة، **ومن ذلك**: عذاب قلب العاشق، فإن من أحب شيئًا غير الله عُذِّب به ولابد، وتراه منشغلًا به علىٰ كل حال، إن جاءه خاف أن يرحل واضطرب قلبه لذلك، وإن غاب عنه خاف ألَّا يأتي، فيعيش حياة ملؤها الهَمُّ والقلق، والعشق وإن استلذ به صاحبه، فهو من أعظم عذاب القلب.

ومن أضرار العشق: أنَّ حب المخلوق وذكره، يشغل عن حب الرب تعالىٰ

---

(١) انظر: «روضة المحبين» (ص١٧٦).

(٢) انظر: «الجواب الكافي» (ص٣٥٦-٣٦٣).

وذكره، فلا يجتمع في القلب هذا وهذا إلَّا ويقهر أحدهما الآخر، ويكون السلطان والغلبة له.

ومن أضراره: أن يصير قلب العاشق أسير قبضة غيره يسومه الهوان، ولكن لسكرته لا يشعر بمصابه، فعيش العاشق عيش الأسير الموثق، وعيش الخلي عيش المسيب المطلق.

ومن ذلك: أن يشتغل بمعشوقه عن مصالح دينه ودنياه، فليس شيء أضيع لمصالح الدين والدنيا من العشق؛ لأنَّ مصالح الدين متعلقة بجمع شتات القلب وإقباله علىٰ الله، والعشق أعظم شيء تشتيتًا له، وأما مصالح الدنيا فهي تابعة في الحقيقة لمصالح الدين، فمن انفرطت عليه مصالح دينه وضاعت عليه، فمصالح دنياه أضيع وأضيع.

ومن ذلك: أن آفات الدنيا والآخرة أسرع إلىٰ العشاق من النار في يابس الحطب؛ **وسبب ذلك**: أن القلب كلما قرب من العشق وقوي اتصاله به بَعُد من الله، وإذا بعد القلب من الله طرقَتْه الآفات، وتولاه الشيطان من كل ناحية واستولىٰ عليه، ولم يدع أذىٰ يمكنه إيصاله إليه إلا أوصله.

ومن أضراره: أنه إذا تمكن من القلب واستحكم وقوي سلطانه؛ أفسد الذهن، وأحدث الوسواس، وأفسد عقل صاحبه فلا ينتفع بعقله.

وأخبار العشاق في ذلك مشهورة معروفة، وبعضها مشاهد بالعيان، وأشرف ما في الإنسان عقله، وبه يتميز عن سائر الخلق، فإذا عُدم عقله حُطَّ قدره، وفقد ما يميِّزه.

ومن أضراره: أنه يفسد الحواس أو بعضها فسادًا حسيًّا أو معنويًّا، وذلك أنَّ فسادها تابع لفساد القلب، فإن القلب إذا فسد فسدت العين والأذن واللسان، فيرىٰ القبيح منه ومن معشوقه حسنًا، ويعمىٰ عن رؤية مساوئ المحبوب وعيوبه، فلا ترىٰ العين ذلك، ويصم أذنه عن الإصغاء إلىٰ العدل فيه، فلا تسمع الأذن ذلك، والرغبات تستر العيوب.

فالراغب في الشيء لا يرىٰ عيوبه، حتىٰ إذ زالت رغبته فيه أبصر عيوبه، فشدة الرغبة غشاوة علىٰ العين، تمنع من رؤية الشيء علىٰ ما هو به، والداخل في الشيء لا يرىٰ عيوبه، بل مَن يرىٰ عيوبه هو من دخل فيه ثم خرج منه، ولهذا كان الصحابة الذين دخلوا في الإسلام بعد الكفر خيرًا من الذين ولدوا في الإسلام، ولذلك قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّما تُنتقض عُرَىٰ الإسلام عروة عروة، إذا وُلِدَ في الإسلام مَن لا يعرف الجاهلية».

وأما فساد الحواس ظاهرًا: فإنه يُمرِضُ البدنَ ويُنهِكُه، وربما أدَّىٰ إلىٰ تلفه، كما هو المعروف في أخبار من قتلهم العشق، وقد رُفع إلىٰ ابن عباس -وهو بعرفة- شاب قد انتحل حتىٰ عاد جِلدًا علىٰ عَظم، فقال: ما شأن هذا؟ قالوا: به العشق، فجعل ابن عباس يستعيذ بالله من العشق عامة يومه.

وقد فسَّر كثير من السلف قوله تعالىٰ: ﴿**رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ**﴾ [البقرة:٢٨٦]، بالعشق، وهم لم يريدوا به التخصيص، وإنما أرادوا به التمثيل، وأن العشق من تحميل ما لا يُطاق، وقد رُئي جماعة من العشاق يطوفون علىٰ من يدعو لهم أن يعافيهم الله من العشق، وذلك لأنه نوع من المرض الذي يُسأل

الله النجاة منه؛ لِمَا فيه من ضياع الدين والدنيا[١].

ومن أضرار العشق: أن صاحبه يُفْرِط في المحبة، بحيث يستولي المعشوق علىٰ قلب العاشق، حتىٰ لا يخلو من تخيله وذكره وإشغال الفكر فيه، فلا يغيب عن خاطره وذهنه، وعند ذلك تشتغل النفس عن استخدام قوتها النفسانية، وتتعطل تلك القوة، فيحدث بتعطيلها من الآفات علىٰ البدن والروح ما يعز دواؤه ويتعذر، فتتغير أفعاله وصفاته ومقاصده، ويختل جميع ذلك، فتعجز البشر عن صلاحه.

فالعشق مباديه سهلة حلوة، وأوسطه هَمٌّ وشغل قلب وسقم، وآخره عَطَب وقتل، إن لم تتداركه عنايةٌ من الله تعالىٰ.

❀❀❀

(١) انظر: «روضة المحبين» (ص١٤٥).

لَمَّـــا رَأَتْـــكَ مُتَـــيَّمًا بِغَـــرَامِهَا أَسْـــقَتْكَ أَقْـــسَىٰ مَـــا يَـــذُوقُ مُتَـــيَّمُ
كَـــمْ عَاهَـــدَتْكَ بِـــأَنْ تَفِـــي بِوُعُـــودِهَا ثُـــمَّ انْثَـــنَتْ هَجْـــرًا وَأَنْـــتَ مُحَطَّـــمُ!

لمَّا رأت المعشوقة هذا العاشق وقد صار بغرامها مُتَيَّمًا؛ أي: قد ذهب الحب بعقله، استبدت بذلك، فَسَامَتْهُ سُوءَ العذاب، وأسقته أقسىٰ صنوف المعاملة؛ ليزداد بها تعلُّقًا، وأشد ما يصنعه المعشوق من الأعمال نحو عاشقه أن يعرضه للتلف، ومن ذلك أن يطمعه في نفسه، ويتزين له، ويستميله بكل طريق حتىٰ يستخرج منه ماله ونفعه، ولا يمكنه من نفسه، لئلَّا يزول غرضه بقضاء وطره منه، **وأقسىٰ من ذلك**: أن يجود بالوصال لغيره، فهنا يزداد عذابه، ويطيش عقله.

وقد كانت عاهَدَتْهُ وقطَعَت له الوعُود، ألَّا تترك وصاله، ولا تتحول إلىٰ غيره، حتىٰ استكان لعهدها، وأمن لوعدها، ظنًّا منه بأنها ستفي بوعودها، حتىٰ فجأته علىٰ حين غِرَّة، وانثنت؛ أي: رجعت بالصدود والهجران، متناسية كل عهد، ناقضة كل وعد، فعاد كسيرًا محطمًا، لم يدم له سرور، ولم يبقَ له فرح.

وهكذا سيكون حال من يثق بالوعود الكاذبة، والأماني الحالمة، فسرعان ما يعود بقلب كسير، وهَمٍّ طويل، وحلم عسير، لم يَجنِ ربحًا، ولم يسلم علىٰ رأس ماله.

❀❀❀

عَجَـبًا لِمَـن رَامَ الوِصَـالَ وَقَلْـبُهُ مَـا زَالَ فِـي نَـارِ الهَـوَىٰ يَتَـضَرَّمُ

والعجب أنه علىٰ الرغم ممَّا عاينه هذا العاشق من غدر تلك المعشوقة، وما مسَّه من الألم والحسرات، نسي كل ذلك، وعاد يطمع بالوصال المحال، رغم أنَّ قلبه لم يزل يتضرَّم بنار الهوىٰ؛ أي: يشتعل، ولم يصدَّه ذلك عن مطلوبه رغم ما قاساه من العناء، وذلك بسبب الهوىٰ الذي سيطر عليه فأعماه، ولم يزل يتبعه حتىٰ أرداه.

واتبَاعُ الهَوَىٰ هو أصلُ كلِّ بَليَّة، قال الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما سُمِّي هَوًىٰ لأنه يَهْوِي بأصحابه»، وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الهوىٰ شرُّ داءٍ خالط قلبًا».

وذلك أنَّ الهوىٰ مَلِكٌ عَسُوفٌ، وسلطان ظالم، دانت له القلوب، وانقادت له النفوس، والنفس إذا هَوِيَت شيئًا مالت إليه؛ حتىٰ تكون عند الذي هويت أكثر من كونها عند جسدها[1].

والعاقل ينبغي له أن يتمرن علىٰ دفع الهوىٰ ليأمن العواقب، ويستمر علىٰ ترك ما تؤذي غايته، وليعلم أن مُدمِني الشهوات يصيرون إلىٰ حالة لا يلتذونها، وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها؛ لأنها قد صارت عندهم كالعيش الاضطراري، فيلقون أنفسهم في المَهَالِكِ لنيل ما يقتضيه تعودهم، ولو زَالَ صدأ الهوىٰ عن بصيرتهم؛ لرأوا أنهم قد شَقُوا بما كانوا يظنون به السعادة، واغتموا بما يظنون به الفرح، وهم مع ذلك لا يطيقون التخلص مما وقعوا فيه[2].

---

(١) انظر: «ذم الهوىٰ» لابن الجوزي (ص٣٢).

(٢) انظر: «ذم الهوىٰ» (ص١٤).

مَـا زِلْـتَ تَـرْجُو أَنْ تَـنَالَ وِصَـالَهَا ... أَوَمَا اعْتَبَـرْتَ بِحَـالِ قَـوْمٍ قَـدْ عَمُـوا؟

ومع ما عاينه هذا العاشق من الحقائق، إلَّا أن الهوىٰ قد أعماه عن الواقع، فما زال يحلم ويرجو أن تجود عليه بوصلها بعد هجرها له، ولو أنه نظر في حال من سبقه إليها، لوجد في ذلك مُعتَبرًا، حيث إنها لم تفِ معهم بعهد، وسامتهم سوء العذاب والصد، والعاقل هو مَن يعتبر بأحوال البشر وتجارب الزمان، ولا يضع نفسه موضع تجربة في أمر قد جرَّبه غيره، وذاق ويلاته، طمعًا في أن يسلم من العطب الذي أصاب من سبقه، فتلك أماني الحالمين، الذين ما زالوا يتمنون ويأملون حتىٰ لحقوا بركب من سبقهم من الهالكين.

والناظم إنما عَنَىٰ بـ «مَرْيَم» المذكورة في هذا النظم: الدنيا، وإنما رمز لها باسم امرأة لسببين:

الأول: لإظهار مزيد من الاهتمام حين يتمثَّل بذكر امرأة.

والثاني: لأنَّ المرأة من أشد الأشياء فتنة، ولذلك قرنها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفتنة الدنيا، فقال: «**إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ**»(١).

وتخصيصها بالذكر مع كون أنها داخلة في فتنة الدنيا، تنبيه علىٰ خطر الافتتان بها، وهذا ليس لأن وجود المرأة شر بذاته، ولكن لِمَا يتعلق بها من الفتنة.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٢).

والفتنة ليست مقصورة علىٰ الميل المؤدي إلىٰ طريق الفواحش، ولكن بتأثيرها البالغ حتىٰ إنها لتصرف الرجل الحازم عما يريده، كما جاء ذلك في الحديث عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال: «**مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ**»[1].

وهذا من حكمة الله البالغة؛ حيث أعطاها مع ضعفها هذه القوة الكبيرة في التأثير، علىٰ حدِّ قول القائل:

يَـرْمِين ذَا اللُّـبِّ حَتَّـىٰ لَا حِـرَاكَ بِـهِ   وَهُـنَّ أَضْـعَفُ خَلْـقِ اللهِ إِنـسَانَا

كما صحَّ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَىٰ الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**»[2]، وفي هذا دليل علىٰ أن الفتنة بالنساء أشَد من الفتنة بغيرهن، ويشهد له قوله تعالىٰ: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ** ﴾ [آل عمران:١٤]، فجعلهن من حُب الشهوات، وبدأ بِهِنَّ قبل بقية الأنواع إشارة إلىٰ أنَّهن الأصل في ذلك، ومع أنها ناقصة العقل والدين تحمل الرجل علىٰ تعاطي ما فيه نقص العقل والدين، كشغله عن طلب أمور الدين وحمله علىٰ التهالك علىٰ طلب الدنيا، وذلك أشد الفساد[3].

وأوجه الشبه بين المرأة المعشوقة المذكورة في هذه القصيدة والدنيا، ما يحدث

---

(١) رواه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (١٣٢).

(٢) رواه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠).

(٣) انظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر العسقلاني (٩/ ١٣٨).

من العشق الذي يؤدي إلىٰ التلف، وأنها تسوم من تعلَّق بها العذاب، بما تعطيه من الوعود الكاذبة التي لا تفي بها، ونقض العهد الذي تبرمه، ثم ما تلبث إلَّا مُدْبِرة، تزيد صاحبها هجرًا، ويزداد بها تلفًا، ومع ذلك يرجع إليها مؤملًا أن تسقيه حلاوة الوصل بعد أن أذاقته مرارة الهجر، فتزيده ألمًا وقطيعة.

وفي كل مرة يرجو أن تجود عليه بوصلها، ولو تفكر بحال من سبقوه إلىٰ عشقها، لعلم أنها لم تَفِ معهم بعهد، ولم تلتزم بوعد، لكنه لم يزل يأمل ويتوهم، كنائم رأىٰ في منامه أن قد ظفر بمطلوبه، فلما استيقظ من نومه فإذ به وقد أفلس من كل ما رأىٰ، وعاين الحقيقة، وودَّع الوهم الذي قاده إلىٰ حيث لا شيء، ولو أنه عمل بنصح الناصحين، لَمَا سقط بأوحال الغارقين، لكنه أعرض عن ذلك فبات تائها، لا يجد دليلًا ولا يهتدي سبيلًا.

وبالرغم من تساقط العاشقين فوجًا فوجًا، إلَّا أنه قد عظم التعلق بهذه المعشوقة الفاتنة، وكل واحد يقول: أنا الذي سأفوز وأظفر، حتىٰ أتت عليهم واحدًا واحدًا، إلَّا من علم أنها ليست زوجة، ولن تكون له زوجة حتىٰ تدوم، فانصرف إلىٰ خاصة نفسه، واشتغل بما ينفعه، ووَدَّع الأمل الذي لا ينقطع، فأبقىٰ علىٰ سلامة قلبه، وسلمت له نفسه، وكان من توفيق الله له أن صرفه عن طلبها إلىٰ ما فيه نجاته، فلمَّا بلغ نهاية المضمار فإذا به وقد لحق بركب الفائزين، حين سقط أهل الأماني الكاذبة، والظنون المتوهمة، فحمد سعيه، وشكر ربه وخالقه، وصدَّق بموعوده، وقال مُذعنًا حامدًا شاكرًا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:٤٣].

فَاسْمَعْ هُدِيتَ نَصِيحَتِي مُتَفهِّمًا وَاعْمَلْ بِهَا إِنَّ النَّصِيحَةَ مَغْنَمُ

ثُمَّ إنَّه وبعد تلك الأبيات التي جُعلت مدخلًا للقصيدة، بدأ الناظم بذكر الحِكَم والمواعظ والآداب التي سيق من أجلها هذا النظم، فانتقل إلىٰ ما أراد بيانه مرشدًا إليه، ودالًّا عليه، فجاءت الأبيات مُجَزَّأة، تحوي موضوعات متعددة، وقدَّم الناظم بالدعاء لمن أراد نصحه، وهذا فيه التلطف بالمنصوح والمتعلِّم حتىٰ يسهل عليه تقبل ما ينبَّه عليه، واللطف بوابة إلىٰ القلوب، فإنَّ الناس يميلون إلىٰ الرفق، لاسيما في الوقت الذي تكثر فيه الفتن، وتتفشَّىٰ الشبه والشهوات، ويختلط فيه الحق بالباطل مما يجعل تمييزه صعبًا!

وقد جاء في الحديث عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**مَا كَانَ الرِّفْقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا نُزِعَ مِن شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ**»(١)، وقال: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ**»(٢).

وقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَيُعْطِي عَلَىٰ الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَىٰ الْخُرْقِ، وَإِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا أَعْطَاهُ الرِّفْقَ، مَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ يُحْرَمُونَ الرِّفْقَ إِلَّا قَدْ حُرِمُوا**»(٣).

ولأنَّ النصيحة والتعليم قد يكون علىٰ خلاف ما كان يعمله المرء ويألفه، فلابدَّ من التقديم لها بعبارات تُذَلِّل القلوب وتَستميلها نحو الرشاد.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٤).

(٢) رواه البخاري (٦٠٢٤)، ومسلم (٢١٦٥).

(٣) رواه الطبراني في «الكبير» (٢٢٧٤)، وهو حسن، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٦٦٦).

ولا يلزم أن يكون المنصوح قد ارتكب خطأً حتىٰ يُنصح، بل يدخل في ذلك تعليمه ما لم يعلم، فَلِكَي ينطبع هذا في ذهنه، ناسب أن يُقدَّم له بعبارات تتفق مع المقام، وهذا أسلوب نبوي قد فعله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث إنه قال لمعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِنِّي لَأُحِبُّكَ يَا مُعَاذُ، فَلَا تَدَعْ أَنْ تَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: رَبِّ أَعِنِّي عَلَىٰ ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(١).

وهنا قد قدَّم الدعاء للمَنصُوح بالهداية تلطُّفًا به.

والهداية: هي الإرشاد والدلالة علىٰ ما يوصل إلىٰ المطلوب، **ويُرَاد بها هنا**: التوفيق والرضا بالحق وقبوله والرغبة فيه، وهذا النوع من الهداية بيد الله جَلَّ وَعَلَا، فلا يملكها غيره سبحانه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦]، وقال سبحانه: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٧٢].

والهداية إلىٰ الحق والصواب من أعظم النِّعَم، ومِنَّةٌ من الله علىٰ عبده، وإذا لم يوفَّق إليها العبدُ لم يَنَل مطلوبه، ولا يَصِل إلىٰ مُبتَغَاه.

ومن ثمرات الهداية: أن يُوفَّق إلىٰ إدراك ما يُلقَىٰ إليه، وأشار الناظم إلىٰ ذلك بقوله: «**مُتَفهِّمًا**»؛ أي:مدركًا للشيء مُحيطًا به، مُحسنًا تصوره.

ثمَّ أشار إلىٰ أن الأخذ بالنصيحة والعمل بها غنيمة عظيمة.

والغنيمة: الفوز بالشيء والظفر به، والعمل بالنصح مما يعودُ علىٰ المرء

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢)، وهو صحيح، انظر: «مشكاة المصابيح» (٩٤٩).

بالنفع العظيم، ويُحَقق من خلاله المَكَاسب الظاهرة والباطنة.

والنصيحة: هي إرادة الخير للمَنصُوح له، وقد أكَّد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ أهميتها بقوله: «**الدِّينُ النَّصِيحَة**»[(١)]، ومعناه: أنَّ عماد الدِّين وقوامه النصيحة، وذلك كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الحَجُّ عَرَفَة**»؛ أي: عماده وأعظمه عرفة[(٢)].

والواجب علىٰ المسلم: أن يكون ناصحًا أمينًا للقريب والبَعيد، يدُلُّهم علىٰ خير ما يعلمه لهم، ويُحَذِّرهم من خلاف ذلك، كما أنَّ من الواجب عليه ترك الخيانة لهم قولًا وفعلًا، فقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبايع أصحابه عَلَىٰ إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ[(٣)].

وجاء عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «لا تَعمَل بالخَدِيعَة فإنها خُلُقُ اللِّئَام، وامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَة حَسَنَةً كانت أو قَبِيحَةً».

وينبغي لمن أراد أن ينصَحَ لشَخص بأمرٍ في خاصة نفسه، أو يحذِّره من عيبٍ هو فيه أن يَنصَحَه سِرًّا، فقد قيل: من وعظ أخاه سرًّا فقد زانَهُ، ومن وعظه علانية فَقَد شَانَه.

وقد جاء عن عبد الله بن المُبَارك رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «كان الرجل إذا رأىٰ من أخيه ما يكره، أمره في ستر، ونَهاه في ستر، فيُؤجر في ستره، ويُؤجر في نهيه،

---

(١) رواه مسلم (٩٥).

(٢) انظر: «شرح النووي علىٰ صحيح مسلم» (١/ ٧٤).

(٣) رواه البخاري (٥٧)، ومسلم (٩٧).

فأما اليوم فإذا رأىٰ أحدٌ من أحد ما يكره استغضب أخاه، وهتك ستره».

وقيل لبعض السَّلف: «تحب أن يخبرك رجل بعيوبك؟ قال: أما أن يجيء إنسان فيُوبِّخني بها فلا، وأما أن يجيء ناصح فنعم».

والنصيحة إذا كانت علىٰ هذه الصفة فإنها تقيم الألفة، وتؤدي حق الأخوة[1].

❀❀❀

(١) انظر: «روضة العقلاء» للبستي (ص١٩٤-١٩٧).

كُــن فِــي أُمُــورِكَ كُلِّهَــا مُتَوَسِّــطًا ... وَاحْــذَرْ زَمَانَــكَ أَنْ يَفُــوتَ وَتَــنْدَمُ

ينبغي علىٰ المَرء أن يكون متوسطًا في كل شؤون حياته، **والتوسط**: هو المنزلة بين الطرفين، والاعتدال في كل شيء.

وميل المرء إلىٰ طرف دون طرف يجعله مضطرب العيش، غير قادر علىٰ موازنة أموره، وفي هذا أعظم الخَلَل؛ حيث لا تستقيم حياته، ولا تثبت قراراته.

ودين الإسلام دين وسط، وبذلك تميَّز علىٰ سائر الأديان، فكان سمحًا ميسرًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ [البقرة:١٤٣]؛ يعني: أهل دين وسط بين الغلو والتقصير؛ لأنهما مذمومان في الدين(١).

والناظر في نصوص الشريعة الإسلامية يرىٰ أنها تحثُّ علىٰ التوسط، وتنهىٰ عن التطرُّف بجَنَاحيه: التساهل والتشدد، وعلىٰ ذلك فيجب علىٰ الإنسان أن يكون وسطًا في أمر دينه، وما يلحق به من أمور دنياه، وتعامله وأخلاقه وسَجَاياه، فإذا فرَّط في فهم ذلك، تدَاخَلت عليه الأمور، وفقد الأُنس والسُّرور.

وغالب الناس إنَّما دخل عليه الخَلَل بسبب عدم فهم هذا الأصل، فإنَّ كل خلق محمود مُحَاطٌ بخُلُقَيْن ذميمين، وهو وسط بينهما، فإذا انحرفت النفس عن التوسط انحرفت إلىٰ أحد الخُلُقَيْن الذَّمِيمَيْن.

ومن أمثلة ذلك: أنك لو نظرت إلىٰ التواضع، لوجدته وسطًا بين الكبر والذل، فإذا انحازت النفس عن الوسط إلىٰ أحد الطرفين، انتقلت إما إلىٰ الذل

---

(١) انظر: «تفسير البغوي» (١/ ١٥٨).

والمهانة وسمَّته -زورًا- تواضعًا، أو تحولت إلىٰ ضدِّه.

ومن المعلوم أنَّ الكَرَم وسطٌ بين البُخل والتبذير، فإذا انحرفت النفس عنه، تحولت إما إلىٰ البخل وسمَّته حرصًا، أو التبذير وادَّعت أنه كرم.

ولو تأملت في الحياء، لوجدته وسطًا بين الوقاحة والضعف، فمن انحرف عن الحياء تحوَّل إما إلىٰ الوقاحة، وإما إلىٰ الضعف الذي يجعله جبانًا عن مواجهة المواقف المُحيطة به، ويُجَرِّئ عليه عدوَّه، ويفوِّت عليه مصالحه، ويسميه حياءً، وليس كذلك، بل هو عجز وضعف.

ومن المقرر أنَّ طَلاقَة الوَجه والبِشْر أمرٌ مُرَادٌ شَرعًا ومحبوبٌ طبعًا، وهو وسط بين التَّعبيس وتصعير الخَد كِبرًا، الذي يوقع الوَحشَة والنُّفرة في قلوب الخلق، وبين الإسراف بالانغماس مع كل أحد دون تحفظ، مما ينزع عنه رداء الهيبة والحشمة، ويزيل الوقار، فإذا تحوَّل المرء عن الوسط، انحاز إلىٰ أحد الضدين، وعلىٰ ذلك فَقِسْ.

فالوسط محمود في معاملة الخلق من الأقرَبين والأبعَدِين، والمُوفَّق لذلك من أعانه الله عَزَّوَجَلَّ وسدَّده للصواب.

ثمَّ حذَّر الناظم من تفريط المرء بزمانه الذي يعيش فيه، فلا يستغله بما يعود عليه بالنفع والخير، فيعقب ذلك الندم والحسرات، إذا جُنيت المحاصيل، وحُصد الثمر، فإذا به لم يَفُز من ذلك بشيء، وعلم أن خسارته إنما كانت بسبب تفريطه، لكن حين لا ينفع الندم، وفوات الزمان وخسارته تكون في أمر الآخرة

بحيث لم يستقم علىٰ الطاعة، ولم يستثمره بعمل صالح أو علم نافع، يرجو أجره وجزاءه يوم مَعَادَهُ.

وكذلك خسارته في عدم تنظيم وقته فيما يكون فيه صلاح حاله ومَعَاشه، فزمن الإنسان هو عمره الذي يعيشه، وأعظم الناس غبنًا من زهد فيه، حين سبقه أهل البصائر الذين علموا حقيقة الحال، فسبقوا إلىٰ مراتب الفوز والفلاح.

وَخُــذِ المَكَــارِمَ إِنْ أَرَدْتَ فَــضِيلَةً   فَالمَــرْءُ يَحْــيَا بِالجَمِــيلِ وَيَــنْعَمُ

الفضيلة: هي الصِّفة الحَسَنة، والدرجة الرفيعة في حُسن الخَلق.

والمكارم: هي المَحَاسن والأفعال المَحمُودة.

وما زال العقلاء يتنافسون إلىٰ الفضائل، وبلوغ الدرجات العالية منها، ولن يبلغها المرء حتىٰ يأخذ بمكارم الأخلاق؛ ولذلك قال النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ**»(١).

فقد كانت العربُ أحسنَ الناس أخلاقًا لسبب ما بقي عندهم من محَاسِن الأخلاق التي ورثوها من الشرائع السابقة، ولكن ضَلُّوا عن كثير منها بسبب كُفرهم، فبُعث النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليُتَمِّم مَكَارم الأخلاق من الأفعال المحمودة المستحسنة؛ كالحياء، والعِفَّة، والوفاء، والمروءة، ويمنع من سَيِّئها وضدِّها من الأخلاق المَنبُوذة المُستهجَنَة.

وهذا مما يجعل المرء دائم الاجتهاد علىٰ تحصيل الصفات التي ينبغ بها، ويتقدم بها علىٰ أهل زمانه؛ لأنَّ هذا دليل علىٰ تمام العقل ونور البصيرة، فإنَّ الذي يتصف بذلك يعيش عيش السعداء؛ لأنَّ المرء يحيا بالجميل -وهو: العمل والخلق الحسن، والمعروف، والإحسان- حياة هانئة، وينعم بألذ عيش وأطيبه.

وهذا الجميل الذي بذلوه، هو من الأعمال الصالحة التي حثَّت عليها الشريعة، وأكدتها النصوص خُصوصًا وعمومًا، فمن أدَّاها مخلصًا لله ربِّ العالمين، كُتبت

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٤)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الأدب المفرد» (٢٠٧).

له سعادة الدنيا والآخرة، ودُفعت عنه الهموم والغُموم، وحصلت له الحياة الطيبة، كما قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

ومن نظر في سير السابقين إلىٰ بذَل المَعرُوف وأعمال البِرِّ والإحسان؛ رأىٰ مقدار ما بلغوه من السعادة، رغم ما يُرَافق ذلك من كَدِّ النفوس وإرهاقها، وبذل الأموال والمُهَج، ثم تجدهم فَرحِين، كأنهم أخذُوا وما بذَلُوا؛ لأنَّ مَن بذَلَ المعروف لِمَا يرجوه من حُسن العاقبة، هوَّنه الله عليه وإن كان شاقًّا، ودفع عنه المكاره، ومِصدَاق ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٤].

فالمُؤمن المحسن المُحتَسِب يُوَفِّيه الله الأجر العظيم، **ومن جُملة هذا الأجر**: زوال الهموم، والغموم، والأكدار، وحلول السعادة، والنعماء.

❀❀❀

وَدَعِ القَبِيحَ مِنَ الفِعَالِ فَإِنَّهُ يُرْدِي الكَرِيمَ مِنَ الرِّجَالِ وَيَحطِمُ

لمَّا أشَار الناظم إلىٰ أنَّ الفَضَائل إنما تُنال بالأخذ بمَكَارم الأخلاق والأعمال، أتبع ذلك بالتنبيه علىٰ اجتناب القَبَائح: وهي كل ما ينفر منها الذَّوقُ السليم، ويأباه العرف العام من الأقوال والأفعال المشينة المُخجِلَة، وذلك أنَّ الفضيلة لا تكمل إلَّا بالأخذ بالمَكَارم واجتناب القبائح.

فالواجب علىٰ المرء: أن يجتنب كل ما يشينه من الصفات والأخلاق والسلوكيات، وأن يعمل علىٰ تزكية نفسه من كل ما ينفِّر منه.

ومن المعلوم أنَّ القلوب الحية، السليمة غير المريضة، تنفر بطبيعتها من القبائح وتبغضها، بخلاف القلب الميت، فإنه لا يفرق بين السلوك الحسن والقبيح، وقد جاء في الحديث أنَّ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ اللهَ كَرِيمٌ، يُحِبُّ الْكَرَمَ، وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا**»(١).

والسَّفْسَاف: هو الرديء من كل شيء، والأمر الحقير، وسَفْسَاف الأخلاق: رديئها، كالبخل والحسد والشَّرَه، وكل صفة مَذمُومة.

والعاقل هو الذي يجعل نفسه في مَنأىً عن مواطن العَطَب، ويجعل عِرْضَه صيِّنًا عن كل ما يَخدِشُه، علىٰ حدِّ قول القائل:

صُنتُ نَفسِي عَمَّا يُدَنِّسُ نَفسِي وَتَرَفَّعتُ عَن جَدَا كُلِّ جِبسِ

(١) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٣/ ٢٥٥)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٦٢٦).

فبمقدار مُحَافظة المرء علىٰ نفسه يكون له السَّبق والتقدم، ولذلك كان العقلاء يصونون مروءاتهم عن كل عيب، ففَاقُوا الأقران، وسبَقُوا أهل الزمان، ومن ذلك:

أنه قيل لعَبد المَلِك بن مروان: أكان مصعب بن الزُّبير يشرب الطِّلَاء -أي: الخمر-؟ فقال: لو علم مُصعَب أن الماء يُفسدُ مُروءته ما شَربَهُ.

وقال محمد بن عليان: «المروءة: حفظ الدِّين، وصيانة النفس، وحفظ حرمات المسلمين».

وكان الرجل منهم مع عداوته لعَدُوِّه يصون نفسه أن يكذب عليه، مخَافَة أن يوصَف بالكذب ولا يزول عنه هذا الوصف مدىٰ العمر، فيسقط جاهه وقدره، حتىٰ قال أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -قبل إسلامه-: كنت امرأً سيِّدًا أتكرم عن الكذب.

فقد صانوا أنفسهم عن القبائح، صيانة لها عن كل فعل رديء يُسقط القدر والجاه؛ لأنَّ لزوم هذه القبائح يردي الكريم من الناس رجلًا كان أو امرأة، ويحله مقام الخسران والبوار.

ولذلك كان أعقل الناس من لزم المَكَارم، واجتنب القبائح، ولو بذَلَ في ذلك الغالي والنفيس، كما قيل:

أَصُونُ عِرضِي بِمَالِي لَا أُدَنِّسُهُ ... لَا بَارَكَ الله بَعْدَ العِرضِ بِالمَالِ

أَحْتَالُ لِلمَالِ إِنْ أَودَىٰ فَأَكسبهُ ... وَلَستُ للعِرضِ إِن أَودَىٰ بِمُحتَالِ

سَـارِعْ إِلَـىٰ العَلْـيَا وَلَا تَكْـسَلْ فَمَـا سَـبَقَ الكِـرَامَ إِلَـىٰ الفَـضَائِلِ نُـوَّمُ

في هذه البيت والذي يَليه، حَثٌّ علىٰ المُسَارَعَة إلىٰ الخَيرات، وبُلوغ أعلىٰ المُنازل والدرجات، وأن يجتهد المَرء لتَّحقيق هدفه.

وحتىٰ يحقق الهدف الذي يأمله ويتمَنَّىٰ أن يبلغه لابُدَّ أن يتخذ الأسباب الموصلة إليه.

وأول ذلك ترك الكسل؛ لأنَّ الكسل مانع من السُّؤدد، ويجعل صاحبه محصورًا في زاوية الأحلام والأماني، فلا يتقدم نحو المَعَالي، ولذلك نبَّه إلىٰ أنَّ الكرام الذين حَازُوا الفضَائل لم يبلغوها إلَّا بتَركهم الكسل.

فمن أراد أن يصل إلىٰ ما وصلوا إليه، فيجب عليه أن يُمعِنَ النَّظر في طريقتهم فيسلكها.

ففرق بين مَن سَعَىٰ إلىٰ التقدم وحقق أسبابه فنال مراده، وبين من نام عن أسباب المَجد فبَقي قابعًا في مكانه، حتىٰ خفت ذكره، وتشَابَهت أيامه، حين ظفر الساعون إلىٰ المَعَالي بمرادهم.

وَإِذَا قَصَدْتَ إِلَىٰ المَعَالِي فَاجْتَنِبْ قَولَ العَذُولِ فَلَا تُطِعْهُ وَتُهزَمُ

وهنا إشارة أيضًا إلىٰ أنَّ من أراد بلوغ المعالي، يجب عليه أن يجتنب قول العَذُول، وهو: اللوَّام المثبط؛ لأنَّ التثبيط والتخذيل من أشد العوامل التي تؤثر في نفوس أهل الهمم، حتىٰ تلحق بهم الهزيمة النفسية، فيتراجعون عن تحقيق آمالهم وطموحاتهم بعد أن كانوا قد أوشكوا علىٰ الفوز بها.

ولذا نبَّه هنا علىٰ أنَّ من أراد الفوز بمطلوبه وجب عليه ألَّا يُرخِي سَمْعَه لأقوال المُخَذِّلِينَ الذين يفتُّون العزائم، ويضعفون القوىٰ، وقد حذَّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من هذا الصنف بقوله سبحانه: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ﴾ [التوبة:٤٧].

فالمُخَذِّل يمنع من الخير، ولا يزال بصاحبه حتىٰ يُردِيَه، وكلما أراد صاحبه التقدم لما فيه مصلحة له أقعده عن المُضِي والإقدام، فإذا وُفِّق المرء للخير جعل بينه وبين هؤلاء أبوابًا مُوصَدة، ومضىٰ إلىٰ تحقيق هدفه، ووثق بربه وطمع بتيسيره له، وسار ثابتًا نحو ما أراد مستعينًا بالله ومتوكلًا عليه، بل وجعل ما يناله من التخذيل سُلَّمًا يَرقَىٰ عليه ليَصِلَ إلىٰ المعالي، ويتحدَّىٰ نفسه التي كادت أن تكون عونًا للمخذل عليه فينتصر عليها.

❀❀❀

وَإِذَا أَرَدْتَ الفَـوْزَ فِـي طَلَـبِ العُـلَا فَـدَعِ الأَمَانِـيَ أَوْ يُقَـالُ وَيُـزْعَمُ

وهنا توجيه لمن أراد الفوز في المنازل العالية، أنه يجب عليه أن يَدَعَ الأماني التي لا تبلغ بصاحبها مبلغًا وقد قعد عن العمل، فإن الأماني رأس أموال المَفَاليس، فلا يأخذ منها إلَّا بمقدار ما يكون كبداية تخطيط لما يريد تحقيقه والوصول إليه، ثم يبدأ العمل لينتقل إلىٰ ما قصد حتىٰ يكون واقعًا بعد أن كان فكرة، فكم من المشاريع التي لم ينتفع بها أصحابها ولم يجنوا أرباحها، بسبب أنهم أبقوها في حيِّز الفكرة، فلم يسعوا إلىٰ نقلها لتكون واقعًا يغيِّر مجرىٰ الحياة، ويُشعِر بالثقة.

فالواجب علىٰ من أراد هذه المنازل الرفيعة: أن يخوض في ميادين المجد؛ ليرىٰ الأمر عِيَانًا، ويلمسه حِسًّا، ولا يكون محبوسًا في دائرة المَزَاعم الخيالية، وأقوال القائلين التي معظمها لا يقوم علىٰ يقين، بل هي مجرد تصورات وظنون، تكون أو لا تكون.

وأصحاب الهمة العالية لمَّا أرادوا المجد سَعَوا إليه، فتركوا الكسل، واجتنبوا ما يمنعهم من تحقيق مرادهم، ولو كان فيه ما يدعو إلىٰ القعود والراحة والدَّعَة، ولم يكتفوا بالأمنيات والظنون والمَزَاعِم، واجتنبوا أقوال المُخَذِّلين وأصحاب الهمم الدَّنِيئَة، فبلغوا منازل يعدُّها كثير من الناس من جنس الخيال والمستحيل.

ومما جرىٰ في ذلك: أن كافورًا الإخشيدي كان عبدًا مملوكًا قد جيء به إلىٰ مصر من السودان أو النوبة، ليُباع في أسواقها، وهو بين العاشرة والرابعة عشرة، وكان مع سواده دميمًا قبيح الشكل، مثقوب الشفة السفلىٰ، مشوَّه القدمين، بطيئًا ثقيل القدم، فوقع في يد أحد تجار الزيوت فسخَّره في عمله، وكان عملًا شديدًا

قاسيًا، فعَانَىٰ بسبب ذلك عناءً شديدًا، فكان يَعصِرُ الزيت ثم يفرغه في الأواني، ثم يعود ليحمل أثقال تلك الأواني علىٰ منكبيه، ثم يجر بعدها العجلات بيديه، وهكذا يستمر علىٰ هذا العمل اليومي الشاق، حتىٰ إذا انتهىٰ عمله آخر اليوم، خرَّ علىٰ الأرض نائمًا وهو متمرغ في الزيت، لا يشعر بما حوله.

ولما شاء الله أن ينقذه، عزم سيده علىٰ بيعه، فذهب به إلىٰ السوق ليبيعه، فجلس بصحبة عبد مثله ينتظران من يأتي ليشتريهما، فقال له صاحبه: تمنيت لو اشتراني طباخ، فأعيش عمري شبعان بما أصيب من مطبخه، فقال كافور -وكان ذا همة عالية-: لكني أتمنَّىٰ أن أملك هذه المدينة.

فمرَّ به محمود بن وهب الكاتب فاشتراه، فبدأت النقلة التي فتحت لكافور طريق المجد، فتعلم القراءة والكتابة، وودَّع متاعب المعصرة وأدرانها، وكان محمود الكاتب صديقًا لمحمد بن طُغج -حاكم مصر-، فشاء الله أن يحمل كافور هدية من سيده إلىٰ ابن طغج الإخشيد، فلما رآه الإخشيد انفتح له قلبه، فاشتراه بمبلغ ثمانية عشر دينارًا، فعمل بين يديه بجد وإخلاص واجتهاد، وكان قويًّا شجاعًا يحمل بين جوانحه نفسًا كبيرة وآمالًا عريضة، وقرَّبه الإخشيد وسلمه زمام الأمور المهمة في الدولة.

وفي عام (٣٣٥هـ) تُوفي محمد بن طغج الإخشيد، فاستطاع كافور أن يدير دفة الدولة عَقِبَه، حيث إن أبناء محمد بن طغج كانوا صبيانًا صغارًا لم يتجاوزوا الخامسة عشرة، وآلت الأمور لكافور الذي ملك السلطة والمال وتولىٰ شؤون الدولة، وعلىٰ الرغم من كونه سيئ المعتقد، إلَّا أنه كان قريبًا من قلوب الناس؛

لكونه سخيًّا كريمًا؛ وينظر بنفسه في قضاء حوائج الناس والفصل في مظالمهم، وقد دام حكمه في مصر ثلاثًا وعشرين سنة.

وقد مرَّ كافور يومًا بالسوق فرأىٰ صاحبه الذي بيع معه وهم صغار، وقد كان يتمنىٰ أن يشتريه طباخ ليُشبع بطنه ويجد مكانًا يأوي إليه، فرآه يعمل عند طباخ، وقد بدا بحالة سيئة، فالتفت كافور إلىٰ أصحابه وقال: لقد قعدت بهذا همته فكان ما ترون، وطارت بي همتي فصرت كما ترون، ولو جمعتني وإياه همة واحدة، لجمعنا مصير واحد.

ولما سقطت الدولة الأموية في المشرق علىٰ أيدي العباسيين، فرَّ عبد الرحمن الداخل رَحِمَهُ ٱللَّهُ متوجهًا إلىٰ المغرب، وكان ذا همة عالية، فقد عزم علىٰ إقامة الدولة الأموية في الأندلس، فلما وصل إلىٰ المغرب أعزوه وأجلُّوه لما عرفوا من شأنه وقدره، وعرضوا عليه أن يقيم عندهم ويحمونه، فقال: إن لي همة أعلىٰ من ذلك، وقد أهديت له جارية جميلة، فنظر إليها وقال: إن هذه من القلب والعين بمكان، فإن أنا اشتغلت عنها بهمتي فيما أطلبه ظلمتها، وإن اشتغلت بها عما أطلبه ظلمت همتي، لا حاجة لي بها الآن، ثمَّ ردها علىٰ صاحبها، ثمَّ توجه إلىٰ الأندلس، وأقام بها الدولة الأموية الفتية التي دامت قرون.

فمن أراد تحقيق مراده، فلابدَّ أن يبادر إليه دون توانٍ أو كسل، ولا يستطيل الطريق، فمن سعىٰ إلىٰ هدف وتوكل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ أوشَكَ أن يبلغه.

❀❀❀

وَالْـبَسْ دَوَامَ الحَـالِ ثَـوْبَ مَعَـزَّةٍ إِنَّ العَزِيـزَ مِـنَ الأَنَـامِ مُقَـدَّمُ

ممَّا يَسعد به المرء، ويحيا به حياة السعداء، ويتقدم الناسَ علىٰ المراتب العلا، أن يحيا عزيزًا، ويلبس رداء العزة، ويتزيَّا به، ويكون ذلك وصفًا له لا يستغني عنه في كل أحواله.

والعزة: هي النُّبل والرِّفعة وكرم النفس، والبَراءةُ من الذل، وشعورُ المرء باحترام ذاته، ولن يبلغ المرء درجات المجد إلَّا إذا حافظ علىٰ ذلك، وكان عزيزًا.

ومفتاح العزة للمرء: أن يقطع الطمع عمَّا في أيدي الناس، فإنه لن يزال غنيًّا إذا هو فعل ذلك، فالناس إنما يعز في نفوسهم من استغنىٰ عنهم، وإنما يزهدون فيمن كان شعاره الطمع فيما في أيديهم، أو أرهقهم بالطلب والمسألة، وقد جاء ذلك بيِّنًا واضحًا في قول النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّوكَ**»(١).

وكان السلف يعدُّون الطمع إلىٰ الناس فقرًا، وإن كان ظاهره غنىٰ، وأن الاستغناء عنهم عِزٌّ وغِنىٰ.

فقد قال سعيد بن عمارة لابنه: «يا بني، أظهر اليأس فإنه غنًىٰ، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر».

وقال أبو جعفر: «اليأس عما في أيدي الناس عزٌّ».

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٠٢)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٩٤٤).

وترك الطمع إلىٰ الناس أشرفُ درجات النُّبل؛ لأنَّ من قنع عفَّ واستغنىٰ.

قال أيوب السختياني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا ينبل الرجل حتىٰ تكون فيه خصلتان: العفة عما في أيدي الناس، والتجاوز عمَّن أساء منهم».

ومن كان دائم التطلع إلىٰ ما في أيدي الناس، فقد أحكم قيد الذل علىٰ قلبه، فلم يعد قادرًا علىٰ الانطلاق نحو المجد، كلما أراد أن يخرج من هذا القيد ردَّه هواه إلىٰ مكان الذل والخنوع، ومن أجل ذلك فقد كان الحكماء يقطعون الرجاء حتىٰ من أقرب الأصدقاء، لِمَا يعلمون ما فيه من الذل؛ خصوصًا إذا جعله المرء عادة له، وهذا دليل علىٰ تمام عقولهم ونور بصائرهم، فإن العاقل يجتنب الطمع إلىٰ الأصدقاء لِمَا فيه من المَذَلَّة، ويُديم اليأس عن الأعداء؛ لأنه منجاة، وتركه مهلكة.

والإياس هو بذر الراحة والعز، **كمَا أن الطَّمَع** هو بذر التعب والذل، وكَم من طامع تَعب وذلَّ ولم ينلْ بُغيته!، وكم من آيس استراح وتعزز وقد أتاه ما أمل وما لم يأمل![1].

ومن أسباب الذُّل: أن يبذل المرء نفسه للئام والأنذال، فيزدرونه ويحطُّون من قدره، **ولذا قال سُفيان بن عيينة** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من يسأل نذلًا حاجة فقد رَفَعَهُ عن قَدره».

وكان السلف يتحمَّلون المَصَاعب في الأعمال، ويتكبَّدون المشاق، ويرون أنَّ هذا العمل علىٰ مشقته، أهون من الحاجة إلىٰ الناس، فعزُّوا واستقامت لهم

(١) انظر: «روضة العقلاء» (ص ١٤٤).

أمورهم، وبقيت نفوسُهم حرة سليمة، لم يأسرها ذُل الحاجة والطمع.

قال أبو معاوية -أحد ولد كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «لقد رأيتني أستقي من البئر أول النهار، وأضرب آخر النهار بالمعول في المعدن علىٰ شبع بطني، فقيل له: إذن لقد لقيت شِدَّة!، قال: أجل، إنَّا طلبنا الدراهم من أيدي الرجال ومن الحجارة، فوجدناها من الحجارة أسهل علينا».

كُــنْ هَيِّــنًا سَــهْلًا قَــرِيبًا لَيِّــنًا يَجْــزِيكَ رَبِّــي بِالــسُّرُورِ وَيَــرْحَمُ

هذا البيت مستنبط من قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حُرِّمَ عَلَىٰ النَّارِ كُلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ قَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ**»(١).

وهذا حديث عظيم اشتمل علىٰ كثير من الشمائل، **ومعناه**: أنَّ النار تُحرَّم علىٰ كل سهل طَلْق حليم ليِّن الجانب.

فقوله «**هَيِّنًا**»: من الهون، وهو السكون والوقار والسهولة.

و«**سَهْلًا**»: أي: سمحًا في المعاملة وقضاء حوائج الناس.

و«**قريبا**»: أي: من الناس، بمجالستهم في مَحَافل الطاعة، ومُلاطَفَتِهم قدر الاستطاعة.

و«**لَينًا**»: ضد الخُشُونة، وفي هذا إشارة إلىٰ الرفق في المعاملة ولطف الطبع في القول والتصرفات.

وفي هذا الحديث بيان إلىٰ أن حسن الخلق يُدخل صاحبه الجنة ويحرمه علىٰ النار، فإن حسن الخلق عبارة عن كون الإنسان سهل العَرِيكة، ليِّن الجانب، طلق الوجه، قليل النفور، طيب الكلمة(٢).

ومن اتصف بهذه الصفات، كان ذلك سببًا لسرور قلبه في الدارين، ونيله رحمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن التزامه بهذه الأخلاق دليل علىٰ ما جعل الله في قلبه من الرحمة، وقد

(١) رواه أحمد (٣٩٣٨)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٩٣٨).
(٢) انظر: «فيض القدير» (٣/ ١٠٥).

جاء في الحديث قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الرَّاحِمُونَ يَرحَمهُمُ الرَّحْمَن**»(١).

كما أن اكتساب الأعمال الصالحة من أعظم الوسائل للسعادة وانشراح الصدر.

فالواجب علىٰ المسلم العاقل حين يرىٰ الجزاء العظيم المترتب علىٰ هذه الأعمال: أن يبادر إليها، ويسارع إلىٰ التخلق بها، ويجعل همَّه أن يكون من أهلها، والفائزين بتحقيق القدر العالي منها؛ وذلك لأنها تفتح القلوب، وتشرح الصدور، وتوثق العلاقات وتقويها، وتَبعَثُ رُوحَ العاطفة؛ لأن القلوب تميل إلىٰ من أحسَنَ إليها، وتُحب من يتلطف بها.

ومن أراد أن يكون له أثر في حياة الناس، فلابدَّ أن يكون متودِّدًا إليهم قدر الإمكان، محسنًا إليهم بالمعاملة، يرجو بذلك وجه الله، لا يريد علوًّا في الأرض ولا فسادًا، بل ليحبوه ويألفوه، فيجد بعد ذلك طريقًا إلىٰ قلوبهم ليدلَّهم علىٰ الله، ويدعوهم إلىٰ ما أمر به من تحقيق العبادة الصحيحة والسلوك المحمود، وقد قيل:

أَحْسِن إِلَىٰ النَّاسِ تَسْتَعْبِد قُلُوبَهُمُ ... فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الإِنسَانَ إِحْسَانُ

قال ميمون بن مهران رَحِمَهُ اللَّهُ: «التودد إلىٰ الناس نصف العقل».

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَمْ أرَ مثل تقارب القلوب».

وأولىٰ الناس بالأخذ بهذه الأخلاق: هم الدعاة إلىٰ الله، فإنَّ حُسن الخُلق قائد إلىٰ كل خير، وهو بوابة الدخول إلىٰ قلوب الناس؛ لدعوتهم إلىٰ التمسك

(١) رواه أبو داود (٤٩٤١)، وهو حسن، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٢٥٦).

بالأخلاق والآداب التي دعت إليها الشريعة، وليَحذَر المسلم أن يكون صادًّا عن دين الله وشرعه بسبب بُعدِهِ عن التحَلِّي بما أمر الله به من السلوكيات والأخلاق.

وفي ذلك يقول الفُضَيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لأن يصحبني فاجر حسن الخلق، أحب إلي من أن يصحبني قارئ سيئ الخلق، إن الفاسق إذا كان حسن الخلق عاش بعقله وخَفَّ علىٰ الناس وأحبوه، وإن العابد إذا كان سيئ الخلق ثقل علىٰ الناس ومَقَتُوه».

وقال الحارثُ بن جزء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «يعجبني من القُرَّاء كل طليق مِضحَاك، فأما الذي تلقاه ببشر، ويلقاك بوجه عَبُوس كأنه يَمُن عليك، فلا كثَّر الله في المسلمين مثله».

❀❀❀

وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلأَنَامِ تَوَاضُعًا تَسْلَمْ مِنَ الخُلُقِ الذَّمِيمِ وَتُكْرَمُ

في هذا البيت حضٌّ علىٰ التواضع؛ لأنه مدخل إلىٰ القلوب.

والتواضع: هو لينُ الجانب، مع البعد عن الاغترار بالنفس، والخضوعُ للحق.

وقوله: «**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ**»؛ أي: ناحيتك وجنبك، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء:٢١٥].

وخفض الجناح للأنام؛ أي: الخَلْق، يكون بلين الجانب لهم، ولطف الخطاب، والتودد، والتحبب إليهم، مع حسن الخلق والإحسان التام بهم، كما فعل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وقد دلَّ علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران:١٥٩].

والتواضع من العبادات التي تقرِّب العبد إلىٰ ربه سبحانه فينال بها رضوانه، قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: «إِنَّكُم تَترُكُونَ خَيرَ أَعمَالِكُم: التَّوَاضُعُ».

وعلىٰ قدر ما يكون المَرءُ متواضعًا علىٰ قدر ما يفتح الله له قلوبًا مغلقة، وعلىٰ قدر قربه منهم سيتلقَّوْن منه ما يمليه عليهم من الخير والهدىٰ، وبالتواضع يزداد المرء رفعة في الدارين، كما قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ**»(١).

وقد كان النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سيد المتواضعين، وكان من تواضعه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).

أنه كان إذا دخل الرجل الأجنبي إلىٰ مجلسه مع أصحابه لم يعرفه، حيث إنه لم يتميز عن أصحابه بهندام أو لباس أو طريقة جلوس، حتىٰ قال أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجلس بين أصحابه، فيجيء الغريب فلا يدري أيهم هو حتىٰ يسأل: أيكم ابن عبد المطلب؟».

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأكل أكلة المتواضع، لم يتميَّز بهيئة معينة، ولا بصبغة خاصة، فقد قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا رسول الله، جعلني الله فداك، كُل مُتكئًا فإنه أهون عليك، فأصغىٰ برأسه حتىٰ كاد أن تصيب جبهته الأرض، فقال: «**لَا، بَل آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبدُ، وَأَجلِسُ كَمَا يَجلِسُ العَبدُ**»[1].

ومن تواضعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يعود المريض، ويشهد الجنازة، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد[2]، وكان يقول: «**لَوْ دُعِيتُ إِلَىٰ كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ**»[3]، وضرْب المثل في الكُرَاع وليس الذراع؛ لأنَّ كُرَاع الشاة لا يدعىٰ إليه ولا يؤكل، ولكن كل ذلك ليبين مقدار التواضع الذي كان عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والذي ينبغي أن يكون المسلم متصفًا به، ولنا فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسوة حسنة.

ومن عَمِلَ بالتواضُع وتخلَّق به؛ نَجَا من «الخُلُق الذميم»: وهو الكبر، وتحققت

---

(١) رواه البغوي في «شرح السنة» (٢٨٣٩)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٥٤٤).

(٢) رواه الترمذي (١٠١٧)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٥/ ١٤٧).

(٣) رواه البخاري (٢٥٦٨).

له السلامة منه، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»(١).

وإنَّ من أعظم الناس خسَارة: قومٌ لبَّس عليهم الشيطان أنَّهم إذا تواضعوا للناس تجرءوا عليهم، وجهلوا قدرهم، فتراهم منقبضين عن الناس في كلامهم وطريقة سلامهم، حتىٰ رفضهم الناس ولم يتقبلوهم، فعاشوا في غربة نفسية إلىٰ أبعد مدىٰ، وبعضهم قد لا يكتشف ذلك إلَّا بعد فوات الأوان، فتجده يحاول الاستدراك، ويتكلَّف غيرَ ما ألفه الناس منه فيزداد همًّا إلىٰ غمٍّ، ولو أنه وطَّن نفسه علىٰ التواضع من أوَّل أمره، مع مراعاة احترام ذاته، لعاش عيش السعداء.

❀❀❀

(١) رواه مسلم (١٤٧).

لَا تُكْثِرِ الشَّكْوَىٰ وَكُنْ مُتَجَلِّدًا فَالصَّبْرُ عَوْنٌ فِي البَلَاءِ وَمَرْهَمُ

في هذا البيت نَهْيٌ عن الإكثار من الشكوىٰ فيما يعرض للإنسان من مشاقِّ الحياة وهمومها، وأن الواجب علىٰ المرء أن يكون «متجلدًا».

والتجلد: هو التصبُّر والتحمل وإظهار القوة، وأنَّ المرء لن يجد معينًا علىٰ تحقيق ذلك إلَّا بلزوم الصبر، ولذلك فالذي ينبغي له أن يتجَّمل بالصبر علىٰ كل أحواله، وأن يعتاد عليه، فإنَّ الصبر كالمرهم: وهو السائل الذي يُطلىٰ به الجرح ليُشفىٰ، كما أن الصبر يداوي الجزع، ويُضمِّد الجراح، ويُعين علىٰ تخَطِّي المِحَن، وسبيل إلىٰ الرضا بما قُدِّر عليه، والقناعة بما كان عليه حاله، ولذلك قد جاء في الحَديث: «**مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»[1].

كما أنَّ الصبر يُطفئ حرارة الأكباد، ويهوِّن أَلَم المصيبة، وعليه إن أصيب بشيء من أنواع المحن أن يلبس ثوب الصبر، ويسأل الله أن يجعله صابرًا محتسبًا؛ وقد جاء في الحديث: «**وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ**»[2].

وأكثر ما يكون تصبرًا: أول وقوع المصيبة، فإن هذا دليل علىٰ ثبات القلب وقوَّته، ومن أجل ذلك فقد قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا الصَّبرُ عِندَ الصَّدمَةِ الأُولَىٰ**»[3].

والواجب اجتنابُ الشكوىٰ وإظهار الجزع، فإنَّ ذلك لا يرفع المصاب،

(١) رواه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).
(٢) رواه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).
(٣) رواه البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦).

ولا يخفف العذاب، بل إنَّ الشكوىٰ تجدد الحزن، وتضعف القلب، وتزيد الحسرة والندم، وتَجلبُ شَمَاتة الأعداء.

وشَمَاتة الأعداء: هي فرح العَدُو ببليةٍ تنزل بعدوِّه، وحزنُه لفرحه، وهي من أشقِّ الأمور وقعًا علىٰ نفوس الشرفاء، تقتل القلوب، وتوهن القُوىٰ، ومن أجل ذلك فقد كان النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يتعوذ من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشَمَاتة الأعداء[1].

ولما جاء النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأصحابه من المدينة إلىٰ مكة معتمرين، وكانت مكة لم تُفتح بعد، قال المشركون من قريش: إنه يقدم عليكم قوم وهنتهم حمَّىٰ يثرب، فأمر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أصحابه أن يرمَلوا ثلاثة أشواط ويمشوا بين الركنين؛ ليرىٰ المشركون جَلَدهم[2].

والرَّمَل؛ كالهَرولة، وهو فوق المشي ودون الإسراع، وأشار العلماء إلىٰ أن في هذا تنبيهًا علىٰ التجلد خوفًا من شماتة الأعداء.

وقال الله تعالىٰ إخبارًا عن هارون أنه قال لأخيه موسىٰ عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ [الأعراف:١٥٠].

وممَّا يُروىٰ أنه قيل لأيوب عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «أيُّ شيءٍ كان أشدُّ عليك في بلائك؟ قال: شماتة الأعداء».

---

(١) رواه البخاري (٦٣٤٧)، ومسلم (٢٧٠٧).

(٢) رواه البخاري (١٦٠٢)، ومسلم (١٢٦٦).

وقال بعض الحكماء: إنَّ مسح القفار، ونزح البحار، أهون من شماتة الأعداء؛ خاصة إذا كانوا مُشَارِكين في النَّسب، أو مُجَاوِرين في بلد.

وفي ذلك قال القائل:

كُلُّ المَصَائِبِ قَد تَمُرُّ عَلَىٰ الفَتَىٰ فَتَهُونُ غَيرَ شَمَاتَةِ الأَعدَاءِ

فمن علم أن كثرة الشكوىٰ وإظهار ذلك أمام الناس بوابة لشماتة الأعداء، كتم سرَّه، وأظهر الثبات والقوة، والتجأ إلىٰ الله في رفع ما أصابه، وتبرأ من حوله وقوته، وعلم أنَّ الناس لا يملكون له ضرًّا ولا نفعًا، فلا يظهر الشكوىٰ بلسان حاله أو مقاله لعدوٍّ شامت يفرح بسقوطه، بل يتوجه بشكواه لله ربِّ العالمين الذي هو قادر علىٰ كشف ضرِّه ورفع بلائه، كما قال تعالىٰ إخبارًا عن يعقوب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦].

هذا؛ وممَّا ينبغي التنبيه عليه: أنَّ الشكوىٰ المذمومة هي ما تكون علىٰ سبيل الكثرة؛ لأنها قد تدلُّ علىٰ ضعف اليقين، وتشعر بالتسخط علىٰ القضاء، وتورث شماتة الأعداء، وأما مجرد إخبار المريض صديقه أو طبيبه عن حاله فلا بأس به[1].

❀❀❀

(١) انظر: «فتح الباري» (١٠/ ١٢٤).

وَاجْعَــلْ وَفَــاءَكَ للــصَّدِيقِ سَــجِيَّةً فَالــصَدُّ وَالهِجْــرَانُ جُــرْحٌ مُــؤْلِمُ

الوفاء من شيم النفوس الشريفة، وآكد الأخلاق الكريمة والصفات الحميدة، يَعظُم صاحبه في العيون، وتميل إليه القلوب، ودليل علىٰ رِقَّةِ الطبع، ونقاء القلب، ومن جمال هذا الأدب: أن النفوس تشتاق لذكره، والناس تحب من كان من أهله.

ولذلك حثَّ هنا علىٰ أن يجعل المرء الوفاء له سجية؛ أي: صفة وطبعًا، والوفاء وإن كان مطلبًا مع البعيد والقريب، إلَّا أنَّ أولىٰ الناس به الصديق الذي قويت بينه وبين صاحبه الروابط والصلات، وتقاسموا أجمل المواقف والأوقات، وأن يجتنب الصدَّ والهجران، فإنه الجُرح الذي يدوم ألمه، ويعسر علاجه، كما أنه دليل علىٰ ضعف الوفاء في القلب؛ لأن أفاضل البشر يحفظون وداد لحظة، فكيف بمن كان له صديقًا ملازمًا، وصاحبًا مداومًا؟!

ولأنَّ الوفاء من أنبل الأخلاق، فقد أُطلق عليه أجمل الأوصاف وأجمعها؛ حتىٰ قيل: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل، فانظر كيف تحننه إلىٰ أوطانه، وتشوقه إلىٰ إخوانه، وبكاؤه علىٰ ما مضىٰ من زمانه؟

كما ضربت بأصحابه الأمثال، وسار بذكرهم الركبان عبر الليالي والأزمان، وعظَّمه العرب حتىٰ في أزمان الجاهلية، لاتفاق العقول علىٰ فضله، ومحبة أصحابه وأهله.

ومن الأمثال السائرة قولهم: «أوفىٰ من السموأل»، والسَّمَوْأَل من يهود العرب قبل الإسلام، وكان من قصَّته: أنَّ امرئ القيس الكندي لمَّا أراد المضي إلىٰ قيصر ملك الروم أودع عند السموأل دروعًا وسلاحًا وأمتعة تساوي من

المال جملة كثيرة، فلما مات امرؤ القيس أرسل ملك كندة يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند السموأل، فقال السموأل: لا أدفعها إلَّا لمستحقها، وأبىٰ أن يدفع إليه منها شيئًا، فعاوده، فأبىٰ وقال: لا أغدر بذمتي، ولا أخون أمانتي، ولا أترك الوفاء الواجب عليَّ.

فقصده ملك كندة بعسكره، فدخل السموأل في حصنه وامتنع به، فحاصره ذلك الملك، وكان ولد السموأل خارج الحصن، فظفر به الملك، فأخذه أسيرًا ثم طاف حول الحصن وصاح بالسموأل: إن ولدك قد أسرته، وهاهو معي، فإن سلمت إليَّ سلاح امرئ القيس الذي عندك، رحلت عنك وسلمت إليك ولدك، وإن امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر، فاختر أيهما شئت.

فقال له السموأل: ما كنت لأخفر ذمتي وأبطل وفائي، فاصنع ما شئت، فذبح ولده وهو ينظر، ثم لمَّا عجز عن الحصن رجع خائبًا، واحتسب السموأل ذبح ولده، وصبر محافظة علىٰ وفائه، فلما جاء الموسم وحضر ورثة امرئ القيس، سلم إليهم الدروع والسلاح، وفي ذلك يقول السموأل:

إذَا المَرءُ لَم يَدنَس من اللؤمِ عِرضُه ... فكُلُّ رداءٍ يَرتديه جَميلُ

وإن أنتَ لم تَحمِل علىٰ النَّفْسِ ضَيمهَا ... فلَيسَ إلَىٰ حُسن الثَنَاءِ سَبيلُ

تُعيِّرُنا أنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنا ... فقُلتُ لهَا إن الكِرَامَ قَلِيلُ

وما ضَرنا أنَّا قلِيلٌ وجَارُنا ... عَزيزٌ وجَارُ الأكثَرينَ ذَلِيلُ

وقد سارت الأمثالُ تُضرَب بالسموأل، حتىٰ إذا مُدح أهل الوفاء كان هو من أوائل من يُذْكَر.

ومن جميل ما يُروىٰ من قصص الوفاء: أنَّ الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور سأل بعض بطانة هشام بن عبد الملك عن تدبيره في الحروب، فقال: كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يفعل كذا وكذا، فقال المنصور: قاتلك الله، تطأ بساطي وتترحم علىٰ عدوي؟ فقال: إن نعمة عدوك لقلادة في عنقي لا ينزعها إلَّا غاسلي، فقال له المنصور: ارجع يا شيخ، فإني أشهد أنك لَوَفي حافظ للخير، ثم أمر له بمال، فأخذه ثم قال: والله لولا جلالةُ أمير المؤمنين وإمضاءُ طاعته ما لبستُ لأحدٍ بعد هشام نعمة، فقال له المنصور: لله درك، فلو لم يكن في قومك غيرك، لكنت قد أبقيت لهم مجدًا مخلدًا!

ولمَّا أحس مصعب بن الزبير بالقتل دفع إلىٰ مولاه زيادٍ فَصَّ ياقوت قيمته ألف ألف، وقال له: انج بهذا، فأخذه زياد ودقه بين حجرين، وقال: والله لا ينتفع به أحد بعدك.

وكان ابن صفوان من جملة من صبر مع عبد الله بن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين حصره الحجاج، فقال له ابن الزبير: إني قد أقلتك بيعتي، فاذهب حيث شئت، فقال: إني إنما قاتلت عن ديني، ثم صبَّر نفسه حتىٰ قُتل وهو متعلق بأستار الكعبة في هذه السنة.

ولأنَّ الوفاء من أعز ما يكون، وجب علىٰ المرء أن يصونه، وأن يحافظ علىٰ أهله إذا ظفر بهم، كما قيل:

اشـدُد يَـديكَ بمَـن بَلـوت وفَـاءَه ... إن الـوفَاءَ مِـن الـرجالِ عَزيـزُ

❀❀❀

أَسْـرِعْ بِحَاجَـاتِ الخَلَائِـقِ مُخْلِـصًا تَحْـيَا سَـعِيدًا فِـي الحَـيَاةِ وَتَـنْعمُ

المسارعة إلىٰ الخيرات والمسابقة إليها من الأمور التي حثَّت عليها الشريعة، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ﴾ [البقرة:١٤٨].

ومن جملة ذلك: مسارعة المرء بقضاء حوائج المسلمين، مخلصًا بذلك لله ربِّ العالمين؛ طلبًا لرضَاه سبحانه، وابتغاء أجره وثوابه.

فمن فعل ذلك تحققت له السعادة في الدنيا والآخرة؛ مِن انشراح صدره، وتيسير أمره، وزوال كربه، وذهاب همِّه وغمِّه، كما قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ، كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ**»(١).

ومعنىٰ ذلك: أنَّ من أعان أخاه في قضاء حاجته، أعانه الله في قضاء حوائجه ولطف به، مجازاة له بمثل فعله، وعلىٰ ذلك فإنَّ من لم يكن في حاجة أخيه فاته خير عظيم، وهو كون الله تعالىٰ في حاجته.

والسعي بحاجات الخلائق لا يُقصد به نوعٌ مُعَيَّنٌ؛ كبذل المال ونحوه؛ بل إنه يشمل جميع المنافع التي ينتفع بها الخلق؛ كتعليم العلم الشرعي، وبذل الجاه والشفاعة، والنصح بكل سبيل يوصل إلىٰ الخير، فقد قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَحَبُّ النَّاسِ إِلَىٰ الله أَنفَعُهُم للنَّاسِ، وَأَحبُّ الأَعمَالِ إِلَىٰ الله سُرُورٌ تُدْخِلُه عَلَىٰ مُسلِمٍ، أَو تَكْشِفُ عَنهُ كُرْبَةً، أَو تَقْضِي عَنهُ دَيْنًا، أَو تَطْرُدُ عَنهُ جُوعًا، وَلَأَنْ أَمْشِيَ مَع أَخِي المُسلِمِ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن أَن أَعتَكِفَ فِي هَذَا المَسجِدِ شَهرًا، وَمَن**

(١) رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عورَتَهُ، وَمَن كَظَمَ غَيْظَهُ -وَلَو شَاءَ أَن يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ- مَلأَ اللهُ قَلبَهُ رِضًا يومَ القِيَامَةِ، وَمَن مَشَىٰ مَعَ أَخِيهِ المُسلِمِ فِي حَاجَةٍ حَتَّىٰ تَتَهَيَّأَ لَهُ أَثبَتَ اللهُ قَدَمَهُ يومَ تَزِلُّ الأَقْدامُ، وَإِنَّ سُوءَ الخُلُقِ لَيُفْسِدُ العَمَلَ كَمَا يُفْسِدُ الخلُّ العَسَلَ»(١).

وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -معلم الناس الخير- مسارعًا في قضاء حاجات الناس بغاية من التواضع والإحسان، وهو القدوة والأسوة، فقد صح عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّ امرَأَةً كَانَ فِي عَقلِهَا شَيءٌ، فَقَالَت: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي إِلَيكَ حَاجَةً، فَقَالَ: «**يَا أُمَّ فُلَانٍ، انظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئتِ حَتَّىٰ أَقضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ**»، فَخَلَا مَعَهَا فِي بَعضِ الطُّرُقِ حَتَّىٰ فَرَغَت مِن حَاجَتِهَا(٢).

وقال أنسُ بنُ مَالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَت الصَّلَاةُ تُقَامُ، فَيُكَلِّمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّجُلُ فِي حَاجَةٍ تَكُونُ لَهُ، فَيَقُومُ بينَهُ وَبَينَ القِبْلَةِ، فَمَا يَزَالُ قَائِمًا يُكَلِّمُهُ، فَرُبَّمَا رَأَيتُ بَعضَ القَومِ لَيَنْعَسُ مِن طُولِ قِيَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ(٣).

والأخبار عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك أكثر من أن تُذكر.

ومن فُتح له هذا الباب فالواجب عليه أن يَحمَدَ الله عليه، وأن يحرص علىٰ بذله؛ فإنه نعمة إن لم يُؤَدِّها علىٰ وجهها يوشك أن تُسلب منه.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ لِلَّهِ أَقوامًا يَختَصُّهُم بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ العِبَادِ، وَيُقِرُّهُم**

---

(١) رواه الطبراني (١٣٦٤٦)، وهو حسن، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٦٢٣).

(٢) رواه مسلم (٢٣٢٦).

(٣) رواه أحمد (١٢٦٤٢)، وهو صحيح، انظر: «صحيح أبي داود» (١/ ٣٦٦).

فِيهَا مَا بَذَلُوهَا، فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنهُم، فَحَوَّلَهَا إِلَىٰ غَيرِهِم»[١].

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد دلَّ العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم علىٰ اختلاف أجناسها ومِلَلِها ونِحَلِها، علىٰ أن التقرب إلىٰ ربِّ العالمين، والبر والإحسان إلىٰ خَلْقِه، من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكلِّ شر، فما استُجلِبَت نِعَمُ الله واستُدفِعَت نِقَمُه بمثل طاعته والإحسان إلىٰ خَلْقِه»[٢].

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١١٥)، وهو حسن، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٦١٧).

(٢) انظر: «الجواب الكافي» (ص٩).

وَدَعِ الْفُضُولَ مِنَ الْكَلَامِ فَإِنَّهُ سُمٌّ زُعَافٌ لَوْ عَلِمْتَ وَعَلْقَمُ

هذا البيتُ وما يَليه يتكلَّمُ عن آداب الكلام وضَوابطه، وما يجب أن يُجتَنَب منه.

فالفُضول: من الفَضل، وهو الشيء الزائد، وفضول الكلام: ما لا فائدة منه.

والواجب علىٰ المسلم: التحرز من فضول الكلام؛ لأنَّ تركه داخل في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مِن حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»(١).

وتَرْكُ الإنسان ما لا يعنيه من أسباب الراحة والسعادة، حيث لا يتكلَّف ما ليس له فيه مصلحة، أو يشغل نفسه فيما فيه تعب قلبه.

وقد قيل للقمان: ما بلغ بك ما نرىٰ من الفضل؟ قال: «صدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعنيني».

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «من علامة إعراض الله عَزَّوَجَلَّ عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه».

وفضول الكلام إما أن يقود صاحبه إلىٰ محرم؛ كالنميمة، والغيبة، والبهتان، والخوض في أعراض الناس، والتنقص منهم، ونحو ذلك من المحرمات.

أو أنه كلام مُبَاح لكنه يَصِل إلىٰ درجة السَّرَف، فلا تبقىٰ شاردة ولا واردة إلا كان له رأي فيها، أو أن يمله جليسه لسوء صنعه، حيث يحتكر المجلس عليه ويديم التنظير في المسائل، مما يؤدي إلىٰ استثقاله من قِبَل الآخرين، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿**لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ**

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧)، وهو صحيح، انظر: «مشكاة المصابيح» (٤٨٣٩).

﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، والمراد: لا خير فيما يتناجىٰ فيه الناس ويخوضون فيه من الحديث إلَّا ما كان من أعمال الخير، كمن أمر بصدقة، أو معروف، أو إصلاح بين الناس، أو غير ذلك من أعمال البر، فأعمال البر كلها معروف(١).

وقد يكون الكلام في بدايته مباحًا، لكنه لا يزال يتكلم في المباح حتىٰ يستدرجه الشيطان إلىٰ الوقوع في المحرم، ومن أجل ذلك فقد وُصف فضول الكلام هنا بأنه: «**سُمٌّ زُعَافٌ**»؛ أي: سريع القتل، «**وَعَلْقَمٌ**»: وهو نبات شديد المرارة يُسمَّىٰ: الحنظل؛ وذلك لأنه لا يزال يتسلل إلىٰ صاحبه، حتىٰ يرديه ويُضعف دينه دون أن يظن أنه سيبلغ به ما بلغ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبوابًا من الشر كلها مداخل للشيطان، فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها، وكم من حرب جرَّتها كلمة واحدة!، وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ: «**وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»(٢).

قال: وأكثر المعاصي إنما تولدها من فضول الكلام والنظر، وهما أوسع مداخل الشيطان...، وكان السلف يحذرون من فضول النظر كما يحذرون من فضول الكلام، وكانوا يقولون: ما شيء أحوج إلىٰ طول السجن من اللسان»(٣).

❀❀❀

(١) انظر: «محاسن التأويل» للقاسمي (٣/ ٣٢٧).
(٢) رواه الترمذي (٢٦١٦)، وهو صحيح، انظر: «إرواء الغليل» (٤١٣).
(٣) انظر: «بدائع الفوائد» لابن القيم (٢/ ٢٣٧).

وَالـصِّدْقُ زَيْـنٌ فِـي المَحَافِـلِ كُلِّهَـا وَالكِـذْبُ نَقْـصٌ فِـي الطِّـبَاعِ وَمَـأْثَمُ

الصدق من شيم النفوس العظيمة، قد تميَّزَ به ذَوو الرفعة والشأن علىٰ مرِّ العصور والأزمان، وهو زينة الجلساء، وأُنس المسامر، مطلب في كل المحافل: وهي المجالس، كما أنَّ الكذب يشين صاحبه، وهو نقص في طبع من اتصف به؛ لأنَّ المرءَ لا يكذب إلا من مهانته وعدم ثقته في نفسه، كما أنه قائد إلىٰ الآثام، والمثالب العظام، ويكفي علىٰ ذلك شاهدًا قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَىٰ الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا**»(١).

ولذلك يجبُ علىٰ المَرء أن يعمل بالصدق حتىٰ يعتَادَهُ لسَانُه، ويجتنب الكذب لما يجني علىٰ صاحبه في حاضر أمره وآخره.

ومن أَجْل ما امتاز به الصدق وأهله بين الأنام، وما اتصف به الكذب من السقوط في الرذائل، فقد عَظُمَت الوصية من قبل أهل العقل والرشاد بالصدق والتحذير من الكذب:

قال إسماعيل بن عبيد الله: «كان عبد الملك بن مروان يأمرني ويقول: علِّم بنيَّ الصدق كما تعلمهم القرآن، وجنبهم الكذب، فإنَّ فيه كذا وكذا؛ يعني: القتل».

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

وقال الفُضَيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما من مُضغَة أحب إلىٰ الله من لسان صدوق، وما من مُضغَة أبغض إلىٰ الله من لسان كذوب».

وقال مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصدق والكذب يعتركان في القلب، حتىٰ يُخْرِجَ أحدُهُما صاحِبَه».

ومن جميل ما تَمَيَّز به الصدق، أنه ما زال صاحبه ملجأً لمن أراد الصواب أو اضطربت حوله الآراء، بخلاف الكاذب الذي لا يوثق بعهده ولا يصدُّق وعده.

والصادق يرزقه الله مَهَابَة وجلالة، فمن رآه هابه وأحبه، وشر ما في المرء لسان كذوب، والكذب له تأثير عظيم في سواد الوجه، ويكسوه برقعًا من المَقْت يَراه كلُّ صادق؛ ولذا كل من رأىٰ الكاذب مَقَتَهُ واحتقَرَهُ[1].

(١) انظر: «إعلام الموقعين» لابن القيِّم (١/ ٩٥).

وَتَحَـلَّ بِالـصَّمْتِ الطَّـوِيلِ تَجَمُّـلًا فَالمَـرْءُ يَـنْجُو بِالـسُّكُوتِ وَيَـسْلَمُ

التَّجمُّل بالصمت دليل علىٰ صحة العقل وسلامته، ومن طال صمته وتأمل فيما حوله رُزِق الحكمة، وقلَّ خطؤه.

والسكوت سبيل إلىٰ النجاة والسلامة، فما أكثر من ندم إذا نطق، وأقل من يندم إذا سكت!

وأعظم الناس شقاء: مَن ابتُلي بلسان كثير الهَذَر ممن يتكلم بالكلام الذي لا يعبأ به، وقد قيل: «مَن صمَت نَجَا».

وكان من وصَايَا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ**»(١).

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قلَّ حياؤه، ومن قلَّ حياؤه قلَّ ورعه، ومن قلَّ ورعه مات قلبه».

والصمت جمال لصاحبه، يكسوه الوقار والهيبة في قلوب الخلق.

قال الأحنَفُ بنُ قيس: «الصمت أمان من تحريف اللفظ، وعصمة من زيغ المنطق، وسلامة من فضول القول، وهيبة لصاحبه».

وكثير الصمت مستور حاله عن ظهور العيب، لا يكشف حاله لشامت، ولا يُحزِنُ بِهَمِّه مُحِب، ويكفي بذلك فضيلة، فإنَّ هذا من علامات السؤدد والكمال.

قال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصمت زين العالم، وستر الجاهل».

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٤٣)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٨٩٠).

وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تشكُ مصيبتك، ولا تحدِّث بوجعك، ولا تذل نفسك بلسانك».

ولفضيلة الصمت، فإن السلف ما زالوا يوصون به، ويمدحونه ويتصفون به.

قال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كانوا يجلسون فيتذاكرون، فأطولهم سكوتًا أفضلهم في أنفسهم».

وقال رجل لأيوب السختياني رَحِمَهُ اللَّهُ: «أوصني، فقال: أقلَّ الكلام».

وقال إسماعيل بن أمية: «كان عطاء بن أبي رباح رَحِمَهُ اللَّهُ يطيل الصمت، فإذا تكلَّم يخيَّل إلينا أنه يؤيَّد».

والصَّمت المَمدُوح: ما كان عمَّا لا فائدة فيه ولا نفع، ولا يدخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنَّ هذا مما لا يستقيم أمر الناس إلَّا به.

وَإِذَا نَطَقْتَ فَلَا تَكُنْ مُتَفَحِّشًا فَالفُحْشُ عَيْبٌ فِي الْكَلَامِ وَمَغْرَمُ

لما ذُكِرَت فضيلة الصمت، ناسب أن يُشار إلىٰ حسن المنطق؛ لأنه لابدَّ للمرء أن يتكلم، بل ومن عادة كثير من الناس الكلام أكثر من الصمت، فناسب أن يذكر في هذا المقام ما يجب علىٰ المرء أن يتأدَّب به إذا نطق، وذلك من تجنَّب الفحش في الكلام.

والفحش: هو القبيح من القول والفعل، والفحش في الكلام يشمل كل كلام من البذاءة، والكذب، والغيبة، والنميمة، والبهت، وقول الزور، ونحوه.

وقد قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيءِ**»(١).

وكان ممَّا وصف به النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: أنه لم يَكُن صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَاحِشًا ولا مُتَفحِّشًا(٢).

وكان صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أبعد ما يكون عن مواجهة المرء بفحش المنطق وإن كان مستحِّقًا لذلك، فقد جاء في الحديث: أنَّ رجلًا استأذن علىٰ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلما رآه قال: «**بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ، وَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ**، فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: يَا رَسُولَ اللهِ، حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **يَا عَائِشَةُ، مَتَىٰ عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا، إِنَّ شَرَّ**

(١) رواه الترمذي (١٩٧٧)، وهو صحيح، انظر: « صحيح الأدب المفرد» (٢٣٧).
(٢) رواه البخاري (٣٥٥٩)، ومسلم (٢٣٢١).

النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحشِهِ»[1].

واستعمال الفُحْش في المنطق ممَّا يُعاب به الكلام.

و(**مَغْرَم**): وهو الدَّين الذي يجعل صاحبه علىٰ جناح الخطر؛ لأنَّ من تعامل بالفحش ربما حمله ذلك علىٰ البذاءة مع الخلق، فردُّوا عليه بمثل مقالته، أو عاقبوه ببدنه.

وقد قام في بعض الناس فهمٌ مغلوطٌ، حيث ظنُّوا أنَّ الحديث دون قيود دليلٌ علىٰ الأريحية والانبساط وعدم التكلف، فتجدهم يخوضون في كل حديث بألفاظ بذيئة، دون مراعاة للآداب العامة، أو حضور من لا يرغب بسماع ما يتكلمون به من الفحش والبذاءة.

وقد قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَلْأَمُ أَخلَاقِ المُؤمِنِ الفُحشُ».

(١) رواه البخاري (٦٠٥٤)، ومسلم (٢٥٩١).

وَامْـزَحْ وَلَا تَجْعَـلْ مُـزَاحَكَ عَـادَةً فَالْمَـزْحُ يُـزْرِي بِالعُقُـولِ وَيَهْـضِمُ

المُزاح: هو الهَزْل والمُدَاعبَة، وهو وسيلة للترويح عن النفس؛ لِئَلَّا يأخُذَها المَلَل والضجر، كما أنه ممَّا يستأنس به الناس وتُستمال به قلوبهم، ومع ذلك فلا ينبغي للمرء أن يُكثر منه ويجعله عادة له، لأنَّ مَن أَكْثَرَ مِن شيءٍ عُرف به، بل إنه يأخذ منه بالقدر اليسير دون إفراط أو مبالغة، وذلك أنَّ كثرة المزاح تزري بالمرء وتعيبه، وتنقص قدره، وتذهب بهاءه.

والمزاح مأذونٌ به، وذلك فيما لا يكون فيه إثم ولا قطيعة رحم، أو ما يكرهه الله عَزَّوَجَلَّ من الكذب ونحوه، وقد كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يمازح أصحابه، ولكنه لا يقول إلَّا صِدقًا وحقًّا، فقد قيل للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا، قَالَ: **إِنِّي لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا**»(١).

وعلىٰ هذا النوع من المزاح تُحمل عبارات مَن أجازه من السلف وتعاطاه.

قال إبراهيم النخعي: «لَا يُمَازِحُكَ إِلَّا مَن يُحِبُّكَ».

ومَزَحَ الشَّعبِيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ **في بيته، فقيل له**: «يا أبا عمرو، وَتَمْزَحُ؟ قال: قُرَّاءٌ دَاخِلٌ، وَقُرَّاءٌ خَارِجٌ، نَمُوتُ مِنَ الْغَمِّ».

وقيل لمحمد بن سيرين رَحِمَهُٱللَّهُ: «هَلْ كَانُوا يُمَازِحُونَ -أي: الصحابة-؟، فَقَالَ: مَا كَانُوا إِلَّا كَالنَّاسِ، كَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا يَمْزَحُ وَيُنْشِدُ الشِّعْرَ».

وذمُّ السلف للمزاح إنما عنوا بذلك ما يؤدي إلىٰ بثِّ روح العداوة، ويقطع

(١) رواه الترمذي (١٩٩٠)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٧٢٦).

الصداقة، ويجرئ الدَّنيء، ويُنتقص فيه من الأخيار والعقلاء وذوي الهيئات، وكم حدث من افتراق بين الأصدقاء والأحبة بسبب هذا النوع من المزاح؛ وذلك لأنَّ من تعاطوه لم يعملوا بضوابطه، وأسرفوا في تعاطيه، حتىٰ آل أمرهم إلىٰ شتات.

فعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: «مَن كَثُرَ ضَحِكُهُ قَلَّتْ هَيْبَتُهُ، وَمَنْ مَزَحَ اسْتُخِفَّ بِهِ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ».

وقال محمد بن المنكدر: «قالت لي أمي وأنا غلام: لَا تُمَازِحِ الغِلمَانَ فَتَهُونَ عَلَيهِم أَو يَجْتَرِئُوا عَلَيكَ».

وعن ربيعة الرأي قال: «إيَّاكُم وَالمُزَاح فَإِنَّه يُفسِدُ المَوَدَّةَ وَيُغِل الصَّدْرَ».

وقال عبد الله بن حبيق: «كان يقال: لَا تُمَازِحِ الشَّرِيفَ فَيَحقِد عَلَيكَ، وَلَا تُمَازِحِ الوَضِيعَ فَيَجتَرِئ عَلَيكَ».

وينبغي لمن مازح إخوانه وأصحابه علىٰ الوجه المأذون به، ألَّا يمازحهم بحضرة عامة الناس، بل يجعل ذلك فيما بينه وبينهم، فإنَّ المجالس تختلف، وقد يمازح صاحبه أمام من يعظِّمه ويجلِّه، وبينهما حدود وضوابط، فيكون سببًا لازدراء ذلك الشخص لصاحبه، أو عدم إدراكه لحقيقة الحال.

وَاصْحَبْ مِنَ الأَخْيَارِ كُلَّ مُسَدَّدٍ مَا زَالَ يَبْذُلُ نُصْحَهُ وَيُقَوِّمُ

من المعلوم للعقلاء وأهل التجارب الفضلاء: أن مصاحبة الأخيار تجلب الخير وتُنَميه؛ لأن المرء سريع التأثر بمن خالطه وصاحبه، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المَرْءُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»(١).

فمن أراد أن يكون سَعيُه صالحًا، وعاقبته محمودة، فليستعن علىٰ ذلك بمصاحبة الصالح العاقل المُسَدَّد الذي يَزِينُه ولا يشينُه، فإنَّ الصاحبَ للصاحبِ كالرقعة في الثوب إن لم تكن مثله شانته.

ويكفي بمصاحبة الصالح المسدد فضلًا أن يُنسب صاحبه إلىٰ مثل منزلته، وإن لم يكن قد عمل بمثل عمله، فقد صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ** -أي: يُعطِيَكَ-، **وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً**»(٢).

وقال عبد الله بن طاوس: «قال لي أبي: يا بني، صاحب العقلاء تنسب إليهم وإن لم تكن منهم، ولا تصاحب الجهال فتنسب إليهم وإن لم تكن منهم».

والأخيار هم إخوان الصدق الذي تنكشف جودة معادنهم الأصيلة عند حلول المصائب والآفات، كما يذودون صاحبهم عن مواقع الهلاك والزلل، ولذلك قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عليكم بإخوان الصدق فاكتسبوهم، فإنهم زَيْن في الرَّخَاء، وعدَّة عند البلاء».

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٣٣)، وهو حسن، انظر: «صحيح الجامع الصغير» (٣٥٤٥).

(٢) رواه البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨).

ولأهمية الصاحب في حياة مَن صَاحَبَه، فقد عَظُمت الوصية به، وكثر التنبيه علىٰ أهميته، وقد لا يدرك بعض الناس هذه الأهمية إلَّا بعد مروره بالتجارب المؤلمة، وتعرُّضه لِمَا يكشف له الخفي، ويبيِّن له ما لم يكن قد دار في خلده أنه سيكون.

قال مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كل جليس لا تستفيد منه خيرًا فاجتنبه».

وقال أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لَصَاحِبٌ صَالِحٌ خير من الوحدة، والوحدةُ خير من صاحب السوء، ومُملي الخير خير من الساكت، والساكت خير من مُملي الشر».

وقيل لابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما خير ما أعطي الرجل؟ قال: غريزة عقل. قيل: فإن لم يكن؟ قال: أدب حسن. قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخ صالح يستشيره. قيل: فإن لم يكن؟ قال: صمت طويل. قيل: فإن لم يكن؟ قال: موت عاجل».

وَاحْـذَرْ مُـصَاحَبَةَ المُـسِيءِ فَإِنَّـهُ يُـرْدِي البُـيُوتَ الـشَّامِخَاتِ وَيَهْـدِمُ

لما ذكر الحرص علىٰ صحبة الأخيار وأكَّد علىٰ ذلك، ناسب أن يُعقبه بالتحذير من صحبة الأشرار، لِمَا ينتج عن مصاحبتهم من الهلاك والعطب، حتىٰ إنهم ليهدمون البيوت الرفيعة، القائمة علىٰ المآثر الحسنة والصفات النبيلة.

وشاهد الحال يحكي كم من شخصٍ كان صالح الحال، فما زال به أصحاب السوء يتنقلون به في غياهب الظلمات، فلم ينتبه حتىٰ سقط علىٰ وجهه وقد أحلُّوه دار الخسارة والندم!

ومن أجل ذلك فقد جاءت النصوص الشرعية في التحذير من مصاحبة الأشرار؛ لأنَّ صحبتهم تجلب الشر وتقود إليه:

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «... **مَثَلُ الجَلِيسِ السَّوْءِ كَنَافِخِ الكِيرِ** -أي: كِير الحَدَّاد-: **إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَن تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**»(١).

ويكفي بصُحبَة صديق السوء شرًّا: أنَّ مَن صاحبه لا يسلم من التهمة وإن لم يعمل بعمله، وهذا معنىٰ الريح الخبيثة المذكورة في الحديث، أي أنه لا يسلم من تلويث سمعته، ومن علم ذلك لم يدنس عرضه بمصاحبة الأشرار.

وقد عظمت وصايا السلف وكثرت في التحذير من أصحاب السوء؛ لعلمهم بما يوقعونه بصاحبهم من أنواع الشرور وقواصم الظهور.

---

(١) رواه البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨).

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره، ولا تفش إليه سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله عَزَّوَجَلَّ».

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تخالط سيئ الخلق، فإنه لا يدعو إلَّا إلىٰ شر، وصاحبه منه في عناء».

وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان يقال: أن يكون لك عدو صالح، خير من أن يكون لك صديق فاسد؛ لأن العدو الصالح يحجزه إيمانه أن يؤذيك أو ينالك بما تكره، والصديق الفاسد لا يبالي ما نال منك».

ومن تأمل وصايا هؤلاء العلماء الذين أُوتوا العلم والحكمة، وتشنيعهم لمصاحبة الأشرار، علم مقدار ما في صحبة أصحاب السوء من الضرر، وإن قصر فهم المرء أول الأمر عن إدراك وجه المنع من صحبتهم.

وَاحْـذَرْ مُـؤَاخَاةَ الحَـسُودِ وَإِنْ بَـدَا حُلْـوَ اللِّـسَانِ وَوَجْهُـهُ مُتَبَـسِّمُ
فَهُـوَ اللَّئِـيمُ وَإِنْ تَظَاهَـرَ نَاصِـحًا يُـبْدِي القَبِـيحَ وَلِلْمَحَاسِـنِ يَكْـتُمُ

الحَسَدُ من أخلاق اللئام: وهو تَمنِّي زوال النعمة عن المحسود، كما أنه مرض قلبي خطير لا يخلص منه إلَّا قليل من الناس، إذا استقر في القلوب أنهكها، وإذا سرىٰ في المجتمعات فرَّقها، وكان من ناتجه تشتت الجهود، وفشل المساعي.

والواجب: الحذر من مصاحبة الحاسد واتِّخاذه صديقًا ملازمًا، فإنه يحمل في قلبه اللؤم والغدر وسوء الطباع، فهو العدو المتربِّص وإن أظهر الوداد والمصافاة، ولا يزال يسارع في ضرر المحسود بكل سبيل، فإن عجز عن إضراره بالمال والبدن، تحوَّل إلىٰ كتم محاسنه وإظهار ما يُبَغِّض الناس فيه، ولذلك كان علىٰ العاقل أن يكون أشد حذرًا ممن هذا وصفه، ويعلم علم اليقين أنه لن يكون له صديقًا وفيًّا، ولن يستقيم معه علىٰ حال.

ومن أجل ذلك فقد أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ بالاستعاذة من الحاسد بقوله سبحانه: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق:٥].

وكان من جملة ما استعاذ منه النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مِنْ خَلِيلٍ مَاكِرٍ عَيْنَهُ تَرَانِي، وَقَلْبُهُ يَرْعَانِي، إِنْ رَأَىٰ حَسَنَةً دَفَنَهَا، وَإِذَا رَأَىٰ سَيِّئَةً أَذَاعَهَا**»[1]، وأولىٰ الناس بهذا الوصف هو الحاسد.

فالحسد داء ينهك الجسد، ويفسد الود، علاجه عسير، ما ظهر منه لا يداوىٰ،

---

(١) رواه الطبراني في «الدعاء» (١٣٣٩)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٣١٣٧).

وما بطن منه فمداويه في عناء، ومنه تتولد العداوة، وهو سبب كل قطيعة، ومنتج كل وحشة، ومفرق كل جماعة، وقاطع كل رحم، ومحدث التفرق، وملقح الشر، يكمن في الصدر كمون النار في الحجر، ولا ينجو منه إلَّا من نجَّاه الله.

ولهذا كان يقال: **ما خلا جسد من حسد، لكن اللئيم يُبديه والكريم يُخفيه**[(١)].

وهو مُفسِد لدين المرء، فلا يزال بصاحبه حتىٰ يقوده إلىٰ الاعتراض علىٰ قضاء الله وقدره، فيتمنىٰ منع ما أعطاه الله لعباده من فضله، ويجعل سبيله إلىٰ ذلك بإحياء الأحقاد والضغائن!

قال تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء:٥٤].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمُ: الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، هِيَ الْحَالِقَةُ، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ: تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ**»[(٢)].

وجاء عن الحسَن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ **أنه قال**: «الحسد أسرع في الدِّين من النار في الحطب اليابس».

والحاسد مهموم مغموم، قد اشتعلت نار الحسد في قلبه حتىٰ أكلته، فانشغل في حياة غيره عن حياته، فازداد همًّا فوق همٍّ، وألمًا علىٰ ألَمٍ.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما رأيتُ ظالمًا أشبه بمظلوم من حاسد؛ نَفَس دائم، وحُزن لازم، وغمٌّ لا يَنفَد».

وقال معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كلُّ الناس أستطيع أن أرضيه إلَّا حاسد

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» لابن تيمية (١٠/ ١٢٥).

(٢) رواه الترمذي (٢٥١٠)، وهو حسن، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٦٩٥).

نعمة، فإنه لا يرضيه إلا زوالها».

والحاسد جاحد للمعروف، وربما كان أكفر الناس لمعروف من حسده، وأشد احتقارًا، وأكثر تصغيرًا له من أعدائه.

ومهما حاول الحاسد أن يُخفي حسده للمحسود، إلَّا أن ذلك لابد وأن يظهر عليه، بتغير لونه، ونظر عينيه، وإخفاء سلامه، والإقبال علىٰ غيره والإعراض عنه، والاستثقال لحديثه، والخلاف لرأيه.

والعاقل لابدَّ أن يميز ذلك ولا يرضىٰ لنفسه أن يكون من جملة المخدوعين، **قال عثمان** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما أسرَّ أحد سريرة إلَّا أظهرها الله علىٰ صفحات وجهه وفلتات لسانه»[1].

لذا؛ فالواجب علىٰ العاقل ألَّا يكون عن حاسده غافلًا، فيصيِّر نفسه لسهامه هدفًا، فإذا أحس من صاحبه بالحسد فليُقَلل ما استطاع من مخالطته، وليحصن سره منه، وليَنْأَ عن مُشَاورته، ولا يغتر بخداعه فيقع في حبائل مكره.

هذا؛ وليعلم أنَّ الحسد قد يكون سببًا لإظهار الفضائل، فقد يتحدث الحاسد عن بعض محاسن المحسود بالعيب والتنقيص، يظن بذلك أنه يكتمها ويحقِّرها عند الناس، فإذا تناولتها الألسن تجلت للأنظار، وبان ما فيها من الجمال، وقد كانت مستورة عن الأعين والأسماع، فما زال الحاسد يذكرها حتىٰ ظهرت واشتهرت، فقامت باسقة ناضرة، بأبهىٰ حلة وأجمل صورة، وقد قيل:

وَإِذَا أَرَادَ اللَّـــهُ نَـــشرَ فَـــضِيلَةٍ طُـوِيتْ أَتَـاحَ لَهَـا لِـسَانَ حَـسُودِ

❀❀❀

(١) «الآداب الشرعية» لابن مفلح الحنبلي (١/ ١٣٦).

وَالجُــودُ سَــتْرٌ لِلعُــيُوبِ وَبَذْلُــهُ يَــشْفِي الجُــرُوحَ الغَائِـرَاتِ وَبَلْـسَمُ
فَتَـرَىٰ الكَـرِيمَ إِلَـىٰ الـنَّدَىٰ مُتَحَبِّـبًا بَــذْلًا وَلَا يُفْــشِي وَلَا يَــتَكَلَّمُ

الجود: هو السخاء والكرم، وهو من الأخلاق التي حثَّت عليها الشريعة وندبت إليها، كما في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ جَوَادٌ يُحِبُّ الجُودَ**»(١).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ** »(٢)، ونحو ذلك من النصوص الدالة علىٰ البذل والسخاء.

ولعلو منزلة الجود فقد بلغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذروته، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ، وَكَانَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي رَمَضَانَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ»(٣).

وقال جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا قَطُّ، فَقَالَ: لَا»(٤).

والجُود يستر العيوب والنقائص، ويُظهر الجميل من الطباع، وهذا مما تعاقب

(١) رواه الترمذي (٢٧٩٩)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٦٢٧).
(٢) رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٨).
(٣) رواه البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨).
(٤) رواه البخاري (٥٥٧٤)، ومسلم (٤٢٧٤).

عليه الناس جيلًا بعد جيل، فتراهم يعرضون عن ذكر مثالب أهل الكرم، لما يرون من انبساط أيديهم بالبذل والعطاء.

قال المهلب بن أبي صفرة: «نعم الخصلة السخاء، تستر عورة الشريف، وتحبب المزهود فيه».

وقالت الحكماء: «أصل المَحَاسن كلها الكرم».

كما أنه سببٌ لشفاء الجروح الغائرة؛ أي: العميقة النافذة، وبلسم لها؛ أي: دواء، وهذه الجروح يُقصَد بها ما يتسبب به الفقر أو الحاجة، مِن ذُلِّ السؤال أو الاضطرار إلىٰ ما لا يرغب به ويألفه، فإذا بذل السخي ماله وجاد به علىٰ من احتاجه، أعانه علىٰ كشف كربِه، وزوال همه، وحفظ وجهه.

ومن عادة الكريم أنه يحب النَّدَىٰ؛ أي: الكرم، ويتحبب إليه ببذله، ومن أجل أن يبلغ عطاؤه درجة الإعظام والرفعة، فإنه لا يبثُّ خبرَه، ولا يتكلم بما بذل وجاد، ولا ينسب إلىٰ نفسه فضلًا، ولا يطلب به مدحًا.

ولا زال عقلاء الزمان يمدحون الكرم وأهله، ويتلذذون بذكر مآثرهم عبر الليالي والأيام.

قال علي بن الحسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سادة الناس في الدنيا الأسخياء الأتقياء».

وقال النعمان بن المنذر يومًا لجلسائه: «مَن أفضل الناس عيشًا، وأنعمهم بالًا، وأكرمهم طباعًا، وأجلهم في النفوس قدرًا؟ فسكت القوم، فقام فتىٰ فقال: أَبَيْتَ اللَّعْنَ، أفضل الناس من عاش الناس في فضله، فقال: صدَقتَ».

وكان أسماء بن خارجة يقول: «ما أحب أن أرد أحدًا عن حاجة؛ لأنه إن كان كريمًا أصون عرضه، أو لئيمًا أصون عنه عرضي».

وجاء عن عبد الله بن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه عطش يومًا في طريقه، فاستسقىٰ من منزل امرأة، فأخرجت له كوبًا، وقامت خلف الباب وقالت: تنحوا عن الباب، وليأخذه بعض غلمانكم، فإنني امرأة عزب، مات زوجي منذ أيام، فشرب عبد الله الماء، وقال: يا غلام، احمل إليها عشرة آلاف درهم، فقالت: سبحان الله أتسخر بي؟ فقال: يا غلام، احمل إليها عشرين ألفًا، فقالت: أسأل الله العافية، فقال: يا غلام، احمل إليها ثلاثين، فما أمسَت حتىٰ كَثُر خُطَّابها».

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينفق علىٰ أربعين دارًا من جيرانه عن يمينه، وأربعين عن يساره، وأربعين أمامه، وأربعين خلفه، ويبعث إليهم بالأضاحي والكسوة في الأعياد، ويعتق في كل عيد مائة مملوك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكان عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أجود الناس، وقد قال له بعض أصحابه: «إنك قد أسرفت في بذل المال، فقال: إن الله عودني أن يتفضل عليَّ، فاعتدت أن أتفضَّل علىٰ عباده، فأخاف أن أقطع العادة، فيقطع عني المادة».

وامتدحه يومًا شاعر أسود يُقال له: نصيب، فأمر له بخيل، وأثاث، ودنانير ودراهم، فقال له رجل: مثل هذا الأسود تعطي هذا المال؟ فقال: إن كان أسود فإن ثناءه أبيض، ولقد استحق بما قال أكثر مما نال، وهل أعطيناه إلَّا ثيابًا تبلىٰ، ومالًا يفنىٰ، وأعطانا مدحًا يُروَىٰ، وثناء يبقىٰ.

وجاء رجل من الأنصار إلىٰ عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال له: «يا ابن عم

رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، إنه ولد لي في هذه الليلة مولود، وإني سميته باسمك، وإنَّ أمَّه ماتت، فقال له: بارك الله لك في الهبة، وآجرك علىٰ المصيبة، ثم دعا بوكيله وقال له: انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه، وادفع لأبيه مائتي دينار لينفقها علىٰ تربيته، ثم قال للأنصاري: عد إلينا بعد أيام، فإنك جئتنا وفي العيش يبس، وفي المال قلة، فقال الأنصاري: جعلت فداءك لو سبقت حاتمًا بيوم ما ذكرته العرب».

ومرَّ يزيد بن المهلب بعجوز أعرابية، فذبحت له عنزًا، فقال لابنه: «ما معك من النفقة؟ قال: مائة دينار، قال: ادفعها إليها، فقال: هذه يرضيها اليسير وهي لا تعرفك، قال: إن كان يرضيها اليسير فأنا لا أرضىٰ إلَّا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي».

والأخبار في ذلك أكثر من أن تُذكر، وإنما اكتفينا منها بما يدل علىٰ غيرها.

فينبغي للمرء أن يُعوِّد نفسه علىٰ الجود والسخاء ثقة بما عند الله تعالىٰ، ويستمتع بما رزقه الله من المال، ويعلم أن من قتَّر علىٰ نفسه كان كالحارس لمال غيره، وقد يجمع ماله ويحرسه لمن لا يشكر فضله، ولا يتقي فيه ربه.

قال عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «ما جمعتَ من المال فوق قُوتِك؛ فإنما أنت فيه خازن لغيرك».

وقال عبد العزيز بن مروان: «عجبًا لمؤمن يؤمن ويوقن أن الله يرزقه ويُخلِف عليه، كيف يحبس مالًا عن عظيمِ أجرٍ وحسنِ سماع».

وقال يحيىٰ البرمكي: «أعط من الدنيا وهي مقبلة، فإن ذلك لا ينقصك منها شيئًا، وأعط منها وهي مدبرة فإنَّ منعَك لا يُبقي عليك منها شيئًا، فكان الحسن بن سهل يتعجب من ذلك ويقول: لله دره ما أطبَعَه علىٰ الكرم، وأعلمه بالدنيا!».

وَتَرَىٰ البَخِيلَ وَقَدْ تَكَاثَرَ جَمْعَهُ مَا زَالَ يَطْمَعُ فِي الثَّرَاءِ وَيَحْلُمُ
قَدْ بَاتَ يَجْمَعُ غَافِلًا حَتَّىٰ دَنَا وَقْتُ الرَّحِيلِ فَمَالُهُ مُتَقَسِّمُ

البُخل من الأخلاق المذمومة، والصفات اللئيمة، وسبب لكل نقص وعيب ومذمة، وكما أنَّ الجودَ حارس للأعراض، فالبخل هاتكٌ للأستار، ومظهرٌ كلَّ عيب، وقد ذمه ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ونَفَّر منه، فقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ [النساء:٣٧].

كما استعاذ منه النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ**»(١).

ولذلك فقد كان كرام النفوس ينفرون منه، ويكرهون أن يتَّصفوا به.

قالت أم البنين بنت عبد العزيز -أخت عمر بن عبد العزيز-: «لو كان البخل قميصًا ما لبسته، أو كان طريقًا ما سلكته».

والبخيل مَحرُوم وإن كثر مالُه، فهو يُمضي عمره في جمع المال، وما يزال يراقب مالَه وهو يكثر ويزداد، وإذا زاد فإذ به يتكاثر ما جمع ويرىٰ أنه قد بلغ المنتهىٰ في الغنىٰ، ويشعر وكأن المال قد حقق له الأمان، ويُرىٰ بالرغم من جمعه كل هذا المال ما زال الطمع يقوده إلىٰ الحلم بالثراء، فيستمر في غفلته، يعيش سكر الحلم بالزيادة، فلا يفيق إلَّا علىٰ الحقيقة المؤلمة، حين يدنو الرحيل، ثم ينقطع أجله، فينتقل ماله إلىٰ وارثه، ليستمتع بهذا المال الذي ملكه دون كد ولا تعب.

---

(١) رواه البخاري (٦٣٦٩).

والبخل كله مذموم، ويمنع من بلوغ درجات المجد والسؤدد!

وأشد درجات البخل: أن يبخل الإنسان علىٰ نفسه مع الحاجة إليه!

فكم من بخيل يمسك المال، فيمرض فلا يتداوىٰ، ويشتهي الشهوة فيمنعه منها البخل، والأخلاق عطايا يضعها الله عَزَّوَجَلَّ حيث يشاء![1].

وكم هي قصة حزينة، أن يعيش المرء يجمع المال، ويبخل علىٰ نفسه ويحرمها من أدنىٰ درجات الاستمتاع، ثم لا يعدو دوره علىٰ الحقيقة إلَّا كونه حارسًا لمال كان يُسمَّىٰ ماله، وهو في حقيقة الأمر غنىٰ مؤقت اقترن باسمه لفظًا، وهو لغيره واقعًا.

وقد نبَّه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علىٰ هذه الحقيقة التي تَغيبُ عن كثير من الناس، وهو أن المالَ الذي يُنسَب للمرء حقيقة ما استنفذه وانتفع به.

فقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يَقُولُ الْعَبْدُ: مَالِي، مَالِي، إِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ: مَا أَكَلَ فَأَفْنَىٰ، أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَىٰ، أَوْ أَعْطَىٰ فَاقْتَنَىٰ، وَمَا سِوَىٰ ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ**»[2].

ومن تأمل في هذا الحديث حقَّ التأمل، انقشع عن عينيه ظلام الجهل، وبانت له الحقيقة الغائبة، واتضح له السبيل الذي لابد أن يسلكه، والأمر الذي فاته ولابد أن يدركه.

---

(١) انظر: «مختصر منهاج القاصدين» لابن قدامة (ص٢٦٥).

(٢) رواه مسلم (٢٩٥٩).

وإن زاد المرء علىٰ بُخله المذموم في الدنيا أن امتنع عن أداء حق الله، فهو الشر المستطير، وسوء المصير، فيكون قد عاش عيش الفقراء، وسيُحَاسَب حساب الأغنياء.

فما لذة الحياة إذا لم يستمتع المرء بالمال الذي أفنىٰ حياتَه بجَمعه، ولم يكسر أغلال البخل الذي يقود إلىٰ أخلاق الخسة والدناءة، وفي كل يوم يقول: غدًا سأعمل، غدًا سأستمتع، لما يكتمل ما عندي قدر كذا وكذا سأفعل، سأذهب، سأبني، سأسافر، سأستمتع، وقبل أن يصل إلىٰ الأمد الذي حدده؛ إذ بالموت يخطفه، ويبدد أحلامه!

إنَّ من يَنظُر إلىٰ البخيل المَحرُوم من هذا الجانب، ليرحم حاله، ويعلم كبير مُصَابه، ويتضح له مقدار غفلته عما أريد به، حيث أمضىٰ حياته بالكَد والتعب، ثم رحل خالي اليدين، فأي بؤس بعد هذا؟

قال ابن مُفلِح الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عجبًا للبخيل المتعجل للفقر الذي منه هرب، والمؤخر للسعة التي إيَّاها طلب، ولعله يموت بين هربه وطلبه، فيكون عيشه في الدنيا عيش الفقراء، وحسابه في الآخرة حساب الأغنياء، مع أنك لم تَرَ بخيلًا إلَّا غيره أسعد بمالِهِ منه؛ لأنه في الدنيا مهتم بجمعه، وفي الآخرة آثم بمنعه، وغيره آمِن في الدنيا من هَمِّه، ونَاجٍ في الآخرة من إثمِهِ»[1].

❀❀❀

(١) انظر: «الآداب الشرعية» (٣/ ٣١٨).

وَعَلَيْكَ بِالإِنْصَافِ وَالْزَمْهُ تَفُزْ وَانْطِقْ بِهِ دَوْمًا وَلَا تَتَلَعْثَمُ

الإنصَافُ: كلمة تَدُل علىٰ العدل، واستيفاء الحقوق وتأديتها علىٰ وجهها، وهو من أفضل الأخلاق وأنبل الصفات، ومن أجل ذلك فقد أمر الله تعالىٰ به.

وقد سُئل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠]، فقال: «العدل: الإنصاف، والإحسان: التفضل»[(١)].

والواجب علىٰ المرء: أن يجاهد نفسه أن يكون متَّصفًا به علىٰ كل حال، وأن يُعوِّد نفسه علىٰ النطق به في جميع الظروف والأحوال.

ولا يتلعثم؛ أي: يمتنع، فإنَّ في ذلك غاية الفوز والظفر، والرفعة في عيون البشر؛ لأنَّ القلوب تميل إلىٰ من أحسن إليها، والإنصاف من أعظم الإحسان، لأنه يمنع من الظلم والإجحاف، ويطفئ نار الغضب التي تشتعل في قلب المظلوم جرَّاء انتقاص قدره والحط منه؛ ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٨]، والشنآن: هو البغض.

وكان من دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله: «**اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ**»[(٢)].

---

(١) «حلية الأولياء» لأبي نُعيم (٧/ ٢٩١).

(٢) رواه النسائي (١٣٠٥)، وهو صحيح، انظر: «مشكاة المصابيح» (٢٤٩٧).

ولمَّا بَعَثَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ يهود خيبر ليخرص لهم الثِّمار، أرادوا أن يرشوه، فقال لهم عبد الله: «يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، أَنْتُمْ أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ، قَتَلْتُمْ أَنْبِيَاءَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَكَذَبْتُمْ عَلَىٰ اللهِ، وَلَيْسَ يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ عَلَىٰ أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ، فَقَالَ اليَهُودُ: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ»(١).

ومع ما اتَّصف به الإنصاف من القدر العالي، وحاجة الناس إليه، إلَّا أنه أندر ما يكون في الناس؛ **ولذلك قال مالك بن دينار**: «ليس في الناس شيء أقل من الإنصاف».

وقال جعفر بن سعد: «ما أقل الإنصاف!، وما أكثر الخلاف!».

وقال أحمدُ بن حنبل: «ما أحسن الإنصاف في كل شيء!».

وذلك أنَّ الناس قد عُلم من حالهم أنهم يمدحون من يُحبون، ويتنقَّصون ممن يبغضون، فإذا وجد من يقوم بالإنصاف في قوله وفعله مع من يبغِض، فهذا الذي بلغ سَنَام المروءة؛ لأنه ما منعه أن يتنقَّص ممَّن يبغضه وهو غير مستحق لذلك إلَّا ما طُبِع عليه من احترامه لذاته، ومنعه نفسه أن يخوض بالكذب والباطل، فيعدُّ ذلك في حقه عيب ونقيصه.

قال مطرِّف بن عبد الله: «قال لي مالك: ما يقول فِيَّ النَّاسُ؟

(١) رواه أحمد (١٤٩٥٣)، وهو صحيح، انظر: «إرواء الغليل» (٨٠٥).

قلت: أمَّا الصَّديق فيُثني، وأمَّا العدو فيقع، فقال: ما زال النَّاس كذلك، لم تَأتِ بجديد، ولكن نعوذ بالله من تتابع الألسنة كُلِّها»[١]؛ أي: أن تُجمع علىٰ الذم.

وأعظم الناس حالًا، وأشدهم ثباتًا: مَن أنصف الناس من نفسه، فإن المرء إذا وقع في الخصومة، أو انتُقص من حقه، انتصر لنفسه وتحامىٰ لها، وربما حمله ذلك علىٰ أن يقول في خصمه ما هو بريء منه، فمن تعامل في مثل هذا الموقف بالإنصاف فهذا أعظم التوفيق.

وقد شتم رجلٌ المهلب بن أبي صفرة، فلم يجبه، فقيل له: «حلمت عنه، فقال: ما أعرف مساويه، وكرهت أن أبهته بما ليس فيه»[٢].

قال عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ثلاث من جمعهن جمع الإيمان: الإنصاف من نفسه، والإنفاق من الإقتار، وبَذلُ السلام للعَالَم»[٣].

وقد جُمِع في هذه الكلمة خير الآخرة والدنيا، فإنَّ الإنصافَ يقتضي أن يُؤدِّي إلىٰ الله تعالىٰ جميع حقوقه وما أمره به، ويجتنب جميع ما نهاه عنه، وأن يؤدي للناس حقوقهم، ولا يطلب ما ليس له، وأن ينصف أيضًا نفسه فلا يوقعها في قبيح أصلًا[٤].

---

(١) «شعب الإيمان» للبيهقي (٨١٣٧).

(٢) «المحاسن والأضداد» لعمرو الليثي (ص٢٦).

(٣) «الزهد» لوكيع (١/ ٥٠٤).

(٤) انظر: «الأذكار» للنووي (ص٢٤٣).

وسُئلَ سفيان بن عيينة عن المروءة فقال: «الإنصاف من نفسك، والتفضل علي غيرك».

والإنصاف مما يُثبِّت المحبة، ويُديم العشرة، ويُذهب الضغينة.

قال الأحنفُ بن قيس: «الإنصافُ يثبت المودة».

وقال: «ثلاث خلال تجلب بهن المحبة: الإنصاف في المعاشرة، والمواساة في الشدة، والانطواء علىٰ المودة».

ومن أراد أن يُنصف غيره فيما يصدر منه من أقوال أو تصرفات، فيضعها في مكانها الصحيح، فليضع نفسه في مكانه، فهنالك سيظهر له وجه التصرف وردة الفعل الذي صدرت منه، فإنك قد تمر ببعض المواقف لبعض العقلاء وذوي الهيئات، فتظل مستغربًا أن هذا الفعل يصدر من مثله، فإذا وضعت نفسك مكانه، تبيَّن لك الأمر، وانكشف لك السر.

ومهما كان من مدح للإنصاف والعمل به، فلا يعني ذلك أن يظلم الإنسان نفسه أمام مَن عُرف حمقُه وجهله، فيُجَرئه علىٰ نفسه حتىٰ يبدوَ أمامه ضعيفًا.

فالمقصود: أن المرء لا يظلم الناس أعداء كانوا أو أصدقاء، ويتعامل معهم بالعدل والإنصاف، لكن لا يحمله ذلك أن يُسقط قدره وجاهه، فمن إنصاف نفسه أن يعطيها قدرها المستحق لها بلا كبر أو خيلاء، لكن لا يبذل وجهه لساقط القدر والأخلاق حتىٰ يستخفَّ به، ويمكِّنه من مَقَاتِلِه، ويزهد الناس في مودته، ويسهل عليهم عداوته.

❀❀❀

وَالعَــدْلُ بَــيْنَ الــنَّاسِ أَنْــبَلُ غَايَــةٍ فَاظْفَــرْ بِهَــا وَاحْــذَرْ تَجُــورُ وَتَظْلِــمُ

العدل: هو الحكم بالحق والاستقامة علىٰ طريقه، واجتناب ما هو ضدُّه، وهو من الصفات الجليلة، والغايات النبيلة، التي تستقيم بها أحوال الناس، وتنتظم بها معايشهم، ولا يستغني عنه أحد من الناس في الخصوص والعموم، فمن عمل به هنئ في عيشه، وأفلح في سعيه، وكُتبت له الرفعة وعلو الشأن.

قال جعفر بن يحيىٰ: «ما استعزَّ الملوك بمثل العدل، وما استُنذروا بمثل الظلم».

ولأهمية العدل فقد أمر الله به عباده فقال سبحانه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ [النحل:٩٠].

وقد قرأ الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ **هذه الآية فقال**: «إن الله جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة، فوالله ما ترك العدل والإحسان شيئًا من طاعة الله عَزَّوَجَلَّ إلَّا جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئًا إلَّا جمعه»(١).

وقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء:٥٨].

وقال رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا**»(٢).

---

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ١٥٨).

(٢) رواه مسلم (١٨٢٧).

والعدل الذي ذُكر فضله هنا وأُمر به، ليس مقصورًا علىٰ من ولي حكم المسلمين من والٍ أو أمير، بل هو عامٌّ يدخل فيه كل من عدل فيما تقلده من خلافة، أو إمارة، أو قضاء، أو حسبة، أو نَظَر علىٰ يتيمٍ، أو صدقةٍ، أو وَقْفٍ، وفيما يلزمه من حقوق أهله وعياله ونحو ذلك[١].

ولما ولي عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخلافة، كتب له أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «سلام عليك، أما بعد: فقد أصبحت قد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها، يجلس بين يديك الشريف والوضيع، والعدو والصديق، ولكل حصته من العدل، فانظر كيف أنت عند ذلك يا عمر، فإنَّا نحذرك يومًا تخضع فيه الوجوه، وتجف فيه القلوب، وتنقطع فيه الحجج لحجة ملك قهرهم بجبروته، فالخلق داخرون له، يرجون رحمته، ويخافون عقابه»[٢].

فيجب علىٰ العبد إن ابتُلي بولاية عامة أو خاصة، أو أسندت إليه مسؤولية، أو أوكل إليه الحكم بين المتخاصمين، أو كان بينه وبين أحد من الناس نزاع، أن يلزم العدل في حال رضاه أو غضبه، ولا يعمد إلىٰ الظلم، فإن الظلم سريع العطب، والظالم معجَّل العقوبة، فقد قال الله تعالىٰ: ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ** ﴾ [إبراهيم:٤٢]، وقد خاب وخسر من كان الله له بالمرصاد.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ ذُنُوبٍ يُؤَخِّرُ اللهُ مِنْهَا مَا شَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ،**

(١) انظر: «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٢/ ٢١٢).
(٢) «حلية الأولياء» (١/ ٢٣٧).

إِلَّا الْبَغْيَ، وَعُقُوقَ الْوَالِدَيْنِ»[١].

وقد تكاثرت الأحاديث التي تنهىٰ عن الظلم وتحذِّر عقوبته، ويكفي من ذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ تعهَّد بنصر المظلوم، فما الظن بمن تعهَّد الله سبحانه بالانتصار له؟

فقد قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهَا تُحْمَلُ عَلَىٰ الْغَمَامِ، يَقُولُ اللهُ جَلَّجَلَالُهُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ**»[٢].

وقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ**»[٣].

ومن علامات الشقاء والغفلة: استمرار الظالم في ظلمه بسبب تأخُّر الجزاء، ولا يعلم أنَّ تأخير الجزاء سبب لتغليظ العقوبة، فقد قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]»[٤].

والموفق حقًّا من رَحَلَ عن هذه الدنيا خفيف الظهر من أثقال الناس، وليس عليه لأحد منهم مظلمة.

❀❀❀

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٩١)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الأدب المفرد» (٤٦٠).
(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (٣٧١٨)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٨٧٠).
(٣) رواه البخاري (٢٤٤٨)، ومسلم (٢٩).
(٤) رواه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

أَحْسِنْ لِجَارِكَ إِنْ أَقَمْتَ بِمَنْزِلٍ وَاصْبِرْ إِذَا وَقَعَ الأَذَىٰ مَا عِشْتُمُ

من محاسن الأعمال التي يتقرَّب بها العبد إلىٰ الله تعالىٰ: الإحسانُ إلىٰ الجار، وقد عظمت الوصية بالإحسان إلىٰ الجار، وتضافرت الأدلةُ من الكتاب والسنة بذلك:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ ﴾ [النساء:٣٦].

الجار ذو القربىٰ؛ أي: ذو القرابة، **والجار الجنب**؛ أي: الجار الأجنبي منك.

وقال النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّىٰ ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**»[(١)]؛ أي: ظننت أن الوحي سينزل بتوريثه؛ لكَثرَة المبالغة بالوصية به.

وقال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ**»[(٢)].

وإكرام الجار من علاماتِ الإيمان.

قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَن كَانَ يُؤمِنُ بِالله وَاليَومِ الآخِرِ فَليُكرِم جَارَهُ**»[(٣)].

وكان لابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا جارٌ يهودي، فإذا ذبح الشاة أرسل إليه.

ويحصل امتثال الوصية بحُسن الجوار، بإيصال أصناف الإحسان للجار حسب

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٤)، ومسلم (٢٦٢٥).

(٢) رواه مسلم (٢٦٢٥).

(٣) رواه البخاري (٦٠١٩)، ومسلم (٤٧).

الوسع والطاقة، من بذلِ السلام له، وطلاقةِ الوجه والبشرِ عند لقائه، وتفقُّدِ أحواله والسؤالِ عنه، وتقديمِ الهدية له، ومعاونتِه فيما يحتاج إليه، والنصحِ له، وتعليمِه ما يجهله.

والمرء لا زال بخيرٍ ما دام محبوبًا إلىٰ جيرانِه محسنًا إليهم، فالجارُ أعظمُ شاهدٍ علىٰ سلوكِ جاره وأخلاقه.

جاء رجلٌ إلىٰ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: «يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ إِذَا أَحْسَنْتُ أَنِّي قَدْ أَحْسَنْتُ، وَإِذَا أَسَأْتُ أَنِّي قَدْ أَسَأْتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **إِذَا قَالَ جِيرَانُكَ قَدْ أَحْسَنْتَ فَقَدْ أَحْسَنْتَ، وَإِذَا قَالُوا إِنَّكَ قَدْ أَسَأْتَ فَقَدْ أَسَأْتَ**»[1].

قال أبو قلابة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خيرُ الناس خيرُهُم في أهله، وخيرُهم في جيرانه، فهم أعلم به».

وسُئل الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عن رجلٍ، فقال**: «هذا يُسأل عنه جيرانه، فإذا أثنَوا عليه قُبِل منهم».

وقد ضَرَبَ السَّلفُ أروعَ الأمثلة بحسنِ الجوار، حتىٰ ضُرب بهم المثل في ذلك.

فقد باع أبو جهمٍ العدوي داره بمائة ألف درهم، ثم قال: «فبكم تشترون جوارَ سعيد بن العاص؟ قالوا: وهل يُشترىٰ جوارٌ قط؟ قال: رُدُّوا عليَّ داري وخذوا مالكم، لا أَدَع جِوارَ رجلٍ إنْ قعدتُ سأل عنِّي، وإن رآني رحَّبَ بي، وإن

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٢٢)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٣٢٧).

غبتُ حفظني، وإنْ شهدْتُ قرَّبني، وإن سألتُه قضىٰ حاجتي، وإنْ لم أسألْه بدأني، وإن نابتني جائحة فرَّج عني، فبلغ ذلك سعيدًا فبعث إليه بمائة ألف درهم».

وكان للإمام عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ **جارٌ يهودي، فأراد أن يبيعَ داره، فقيل له:** «بكم تبيع؟ قال: بألفين، فقيل له: إنها لا تساوي إلَّا ألفًا، قال: صدقتم، ولكنْ ألفٌ للدار، وألفٌ لجوار عبد الله بن المبارك، فأُخبر ابنُ المبارك بذلك، فدعاهُ فأعطاه ثمن داره، وقال: لا تبعها».

وكان كعبُ بنُ مَامةَ يُضرب به المثلُ في حسنِ جواره، فيقال: «جارٌ كجارِ أبي دؤاد، وكان أبو دؤاد -يعني: كعبًا - إن مات لجاره بعيرٌ أو شاةٌ أخلفها عليه، وإذا مات الجارُ أعطىٰ أهلَه مقدارَ ديتِه من ماله».

والديارُ علىٰ الحقيقة لا تُقَاس بجميلِ بنيانها، وإنما تغلو وترخص بجيرانها، فعلىٰ المرء إن أراد أن يسكن بيتًا أنْ يجتهدَ وسعه في اختيار جيرانه، فإنَّ بهم صلاحَ السكنىٰ وفسادَها.

ومن أعظمِ التوفيق وأسبابِ السعادة: أن يُحسِنَ المرءُ إلىٰ جيرانه ويُحسنوا إليه، وأن يبذلَ جهده في ذلك، وأن يبسطَ إليهم معروفه ويحفظَ جوارهم غاية الحفظ بما استطاع إلىٰ ذلك سبيلًا، فإن حفْظَ الجوار من كمال الإيمان، والمُوَفَّق من وفقه الله تعالىٰ.

وينبغي علىٰ المرء أن يصبر علىٰ أذىٰ جاره إذا حصل منه ذلك، حتىٰ يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، فإنَّ من حسن الجوار الصبر علىٰ أذىٰ الجار.

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ليس حسن الجوار كف الأذىٰ، بل حسن الجوار الصبر علىٰ الأذىٰ»[١].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إلىٰ جنْبِ كلِّ مؤمنٍ منافقٌ يؤذيه».

فلا تُقابَل الإساءة بالإساءة، بل الواجب الصبر علىٰ ذلك، ومَن أوذي فإن الله ناصرُه، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَاعْلَم أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبرِ**»[٢].

وقد حذَّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أذىٰ الجار، سواء كان بالقول أو الفعل أشدَّ التحذير، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ.** قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»[٣]؛ أي: الذي لا يأمن جارُه ظلمه وغدره وخيانته وعدوانه، وهذا دليلٌ علىٰ تحريم العدوان علىٰ الجار بأي صورة كانت، وأنَّ ذلك من كبائر الذنوب، فليحذر المسلم أشدَّ الحذر أن يكون متَّصِفًا بشيءٍ من هذه الأوصاف.

وقد استعاذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جار السوءِ فقال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعوذُ بِكَ مِنْ جَارِ السَّوءِ فِي دَارِ الْمُقَامَةِ، فَإِن جَارَ الْبَادِيَةِ يَتَحَوَّلُ**»[٤].

وما استعاذ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جار السوء إلَّا لعظم ضرره؛ حيث إنه مطلعٌ

---

(١) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص٣٣٦).

(٢) رواه أحمد (٢٨٠٣)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٢٣٨٢).

(٣) رواه البخاري (٦٠١٦)، ومسلم (٤٦).

(٤) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١١٧)، وهو حسن، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٥٥٦).

علىٰ أسرار جاره، قريبٌ من الأحداث التي تمرُّ به، ولذلك فإنه يبلغ في أذاه ما لم يبلغه غيره.

فالواجب علىٰ المسلم: كَفُّ أذاه عن جاره؛ فلا يؤذيه بقوله أو فعله، كاطِّلاعه علىٰ محارمه، أو إفشاء أسراره، أو تتبع عوراته، أو أنه لا يكف أبناءه عن أذية جاره، كمن يرىٰ تعدي أولاده علىٰ بيت جاره بالأذىٰ ولا يأخذ بأيديهم، فإنَّ هذا من سوء الجوار المخالف للآداب الإسلامية والأخلاقِ المَمدُوحة.

قال عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من حق الجار أن تبسط إليه معروفك، وتكف عنه أذاك».

وكان لأبي الأسود الدؤلي بالبصرة دار، وله جارٌ يتأذىٰ منه في كل وقت، فباع داره، فقيل له: «بعت دارَك؟ قال: بل بعت جاري!»، فصارت مثلًا.

إن إلحاق الأذىٰ بالجار بأي نوع من الأنواع خُلُقٌ دنيءٌ لا يليق بمسلم يتخلق بأخلاق الإسلام أن يتَّصِفَ به، كما أنه باب من أبواب الإثم، وسبيل إلىٰ دعاء الناس علىٰ هذا المُؤذِي، وليس بخيرٍ من دعا عليه الناسُ!

وقد جاء رجل إلىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشكو جاره، فقال: «**اذْهَبْ فَاصْبِرْ**، فَأَتَاهُ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا. فَقَالَ: **اذْهَبْ فَاطْرَحْ مَتَاعَكَ فِي الطَّرِيقِ**، فَطَرَحَ مَتَاعَهُ فِي الطَّرِيقِ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ فَيُخْبِرُهُمْ خَبَرَهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَلْعَنُونَ جَارَهُ: فَعَلَ اللهُ بِهِ وَفَعَلَ وَفَعَلَ، فَجَاءَ إِلَيْهِ جَارُهُ فَقَالَ لَهُ: ارْجِعْ لَا تَرَىٰ مِنِّي شَيْئًا تَكْرَهُهُ»[1].

(١) رواه أبو داود (٥١٥٣)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب» (٢٥٥٩).

ويعظم المصاب إذا وقع الأذىٰ علىٰ الجار في دار إقامته في مثل هذه البيوت المتلاصقة التي لا سبيل للانتقال عنها، فإذا كان هو في بيت إقامتِه، وجارُه لا يكف عنه أذاه وأذىٰ أبنائه، فكيف السبيل إلىٰ الخلاص؟

ومن أجل ذلك فقد قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ جَارِ السَّوْءِ فِي دَارِ الْمُقَامِ، فَإِنَّ جَارَ الْبَادِيَةِ يَتَحَوَّلُ عَنْكَ**»(١).

فليتق اللهَ المُسلِمُ بكف أذاه عن جيرانه، وليأخذ علىٰ يد زوجته وأبنائه، وليكن كفُّ الأذىٰ قولًا وفعلًا، ولا يستغلُّ حياءَ بعض جيرانه أو ضعفهم، وليَحذَر أنْ يسلِّط اللهُ عليه من لا يرحمُه، جزاءً وفاقًا بعمله السيئ.

❀❀❀

(١) رواه النسائي (٥٥٠٢)، وهو حسن، انظر: «صحيح الجامع الصغير» (١٢٩٠).

وَالسَّمْتُ بُرْهَانُ العُقُولِ وَحِصْنُهَا يَعْلُو بِهِ قَدْرُ الْكَرِيمِ وَيَعْظُمُ

السَّمت: هو الهيئة والوقار والسَّكينة، وبسَببه يعظُم قَدرُ المرء ويعلو؛ لأنَّ السَّمت دليل علىٰ صحة العقول، وتحصين لها عمَّا يشينها، وسلوك صاحبه الطريق الأمثل، والتَّزيي بلباس أهل الخير.

والعاقل هو الذي يتميز بحُسن سَمته؛ لأن السَّمت سبيل إلىٰ مَحبة من اتَّصف به، كما أنَّ الناس يحتاجون إلىٰ صاحبه في المدلهمات، إذا أرادوا مشورةً، أو اختلطت عليهم الأمور؛ لأن الغالب في صاحب السمت أن يكون ذا رأي وبصر.

ولو لم يكن في السمت إلا احترام المرء لذاته، بحيث لا يعتدي علىٰ أحد بقول أو فعل، ولا يجعل لغيره فرصة أن يتخطىٰ حدود اللياقة والأدب معه، لكفىٰ بذلك ترغيبًا بالتحلي به.

وقد رغَّب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسمت الحسن، ومَدَح أهله، وبيَّن ما له من الفضل الكبير، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**السَّمْتُ الْحَسَنُ، وَالتُّؤَدَةُ، وَالاقْتِصَادُ، جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**»[1].

ومعنىٰ الحديث: أن هذه الخِلال من شَمائل الأنبياء، ومن جُملة خصالهم، وأنها جزء معلوم من أجزاء أفعالهم، وعليه فيُسَنُّ أن يتعلم الأدب، والسمت، والفضل، والحياء، وحسن السيرة شرعًا وعُرفًا[2].

---

(١) رواه الترمذي (٢٠١٠)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٩٦).

(٢) انظر: «الآداب الشرعية» (١/ ٤١٨).

وقال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قول الله تعالىٰ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦]: «هو السَّمت الحَسَن في الوجه»[١].

وفسَّر قول الله تعالىٰ: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ [الفتح:٢٩]، فقال: «هو السمت الحَسَن»[٢].

والسَّمت قد يكون جِبِلَّة يُجبَل عليها المَرء، وقد تؤخذ بالاكتساب، وعلىٰ كلِّ حالٍ فهي مِنَّة يَمتَنُّ الله بها علىٰ مَن شاء من عباده.

ومن أعظم الوسائل إلىٰ اكتساب هذه الخصلة الجميلة الفريدة: ملازمة أصحابها، والاقتداء بهم في ذلك، وهذا فعل الأخيار من كل جيل، إنما يكتسبون صفات المَعَالي بالاختلاط بأهلها والأخذ عنهم.

وقد قال عبد الرحمن بن يزيد: «سألنا حُذَيفَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رجل قريب السَّمت والهَدي من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتىٰ نأخُذَ عنه، فقال: ما أعرف أحدًا أقرب سمتًا وهَديًا ودلًّا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ابن أمِّ عبدٍ[٣]؛ أي: عبد الله بن مَسعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال علقمَةُ بن قيس النَّخعي: «كان عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُشَبَّه بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هديه ودلِّه وسَمْتِهِ».

وقال إبراهيم النخعي: «وكان علقمة يُشَبَّه بعبد الله[٤]، وقد لازمه حتىٰ رأس

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٠/ ١٢٦).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٢٣).

(٣) رواه البخاري (٣٧٦٢).

(٤) «المستدرك علىٰ الصحيحين» للحاكم (٥٣٩٦).

في العلم والعمل، وتفَقَّه به العلماء، وبَعُد صيته»[١].

ولمنزلة السمت عند السلف، فقد كانوا إذا أرادوا أن يأخذوا العلم عن أحد نظروا إلىٰ سمته وهديه قبل أن يَطلُبوه منه.

قال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلىٰ سمته، وإلىٰ صلاته، وإلىٰ حاله، ثم يأخذون عنه»[٢].

وقال الحُسَين بن إسماعيل: «سمعت أبي يقول: كان يجتمع في مجلس أحمد -ابن حنبل- زُهَاء علىٰ خمسة آلاف أو يزيدون، أقل من خمسمائة يكتبون، والباقي يتعلمون منه حُسن الأدب وحُسن السَّمت»[٣].

هذا؛ وإنَّ أَوْلَىٰ الناس بالسَّمت طلاب علوم الشريعة؛ لأنهم القدوة في المجتمع، وهم الذين يُوجِّهون الناس ويعلمونهم، وحتىٰ يستقيم الفرع فلابد من استقامة الأصل.

ولذلك قال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إذا تعلمتم العلم فاكظموا عليه، ولا تخلطوه بضحك وباطل؛ فتمجه القلوب».

وقال الإمام مالك: «إنَّ حقًّا علىٰ من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، وأن يكون مُتبعًا لأثر من مضىٰ قبله».

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٤/ ٥٤).

(٢) «الآداب الشرعية» (١/ ٤١٨).

(٣) «الآداب الشرعية» (٢/ ١٢).

ولذلك فالواجب علىٰ طالب العلم أن يتجنب اللعب، والعبث، والسخف في المجالس، وكثرة الضحك، وإدمان المزاح والإكثار منه، فإن كثرة المزاح والضحك تضع من القَدْر، وتُزيل المُروءة[1].

هذا؛ وإنَّ من جَمَال السمت أن يكون طبيعة يعتادها المرء بلا تكلُّف أو ثقل، فإنَّ البعض قد فهموا السمت فهمًا مغلوطًا مُتكلفًا فيه، فصاروا ثقلاء الحضور، حتىٰ ضاقت بهم الصدور.

ومن نظر في سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ اتَّضح له المراد، فقد كانوا أفضل الناس سَمتًا وهديًا، ومع ذلك كانوا ألطف الناس معاشرة، وألينهم معاملة، وأشدهم تواضعًا، والخير كله في اقتفاء آثارهم والعمل بهداهم.

❀❀❀

(١) انظر: «الجامع لأخلاق الراوي والسامع» للخطيب البغدادي (١/ ١٥٧).

وَتَجَـارِبُ الأَزْمَـانِ أَعْظَـمُ وَاعِـظٍ وَالْمَـرْءُ مِـنْ أَخْطَائِـهِ يَـتَعَلَّمُ

ما دام أنَّ الإنسان يعيش في هذه الحياة، يستنشق الهواء، وتدبُّ فيه الرُّوح، فإنه سيبقىٰ يخوض تقلبات الحياة، بين فرح وسرور، وفَقْدٍ ولقاء، وستَمُرُّ به كثير من التجارب، التي سيكون لها دورٌ كبير في تكوين شخصيته، بين شخص مقدام، وآخر منهزم، وبين رجل يُحَوِّل هزيمته إلىٰ انتصار، وآخر يَجُرُّ أذيال الهزيمة في كل معركة.

والمُوَفَّق السعيد من استفاد مما يمر به من التجارب، واتعظ بما باشره من الأحداث، ولازم الصواب إن علمه أو جرَّبه، وتعلم من الخطأ بعد أن وقع فيه وجانبه، وجعل التجربة سببًا من أسباب النجاح، لا الحزن والانكسار.

والتجربة تصقل العقل وتنميه، وقد قيل: «كل شيء محتاج إلىٰ العقل، والعقل محتاج إلىٰ التجارب»[(١)].

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «العاقل مَن وعظته التجارب»[(٢)].

وقال الحكم بن عبد الله: «كانت العرب تقول: العقلُ التجارب، والحزمُ سُوء الظن»[(٣)].

وقد قيل:

أَلَـم تَـرَ أَنَّ العَقـلَ زَيـنٌ لِأَهلِـهِ وَأَنَّ كَمَـالَ العَقـلِ طُـولُ الـتَّجَارِبِ

---

(١) «عيون الأخبار» لابن قتيبة (١/ ٩١).

(٢) «ربيع الأبرار ونصوص الأخيار» للزمخشري (٣/ ٤٤٤).

(٣) «روضة العقلاء» (ص٢٢).

وكم سيَمُر بك من تجارب الناجحين الذي كان سبب ما بلغوه من النجاح فشلٌ مرَّوا به، ذاقوا بسببه الألم، وقَاسُوا الشدَّة، ومع ذلك لم يجلسوا ويندبوا الحظ، ويبكون علىٰ الماضي؛ لعِلمِهم أنَّ ما فات لن يعود، بل سرعان ما أعادوا ترتيب أوراقهم، فحوَّلوا خسارتهم إلىٰ ربح.

ومن أراد أن يسبق البعيد والقريب، فليعتبر بما يمر به من التجارب، ويستفيد من أحداث الزمان، فإن كانت التجربة مرَّت بغيره، نظر كيف تعامل معها ذلك المرء، هل بطريقة صائبة فعمل بعمله، أو بطريقة خاطئة فاجتنب طريقه، وإن كانت التجربة قد حدثت له فينبغي أن يكون أكثر استفادة منها؛ لأنه شعر بمقدار الألم والتعب الذي مرَّ به، سواء كان ألم الوصول إلىٰ النجاح، أو الحسرة التي لازمت الخسارة.

قال معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من لم تنفعه التجارب لا يدرك المعالي»[(١)].

وقال بعض الأعراب: «من لم تَسُمَّهُ التجارب؛ دبت إليه العقارب»[(٢)].

ولا زال الزمان يقدم الدروس والعظات، لكل فردٍ وجيل، وبقدر استفادة المرء من العظات يتحقق له الطمأنينة والسكون؛ لأنَّ سابق التجربة تعين علىٰ التصرف في الحاضر والتعامل معه.

وإنما أحداث الحياة صور متكررة، لكن بأزمان متفاوتة؛ بلدان تتغير،

(١) «التذكرة الحمدونية» لبهاء الدين البغدادي (٢/ ١٢٧).

(٢) «ربيع الأبرار ونصوص الأخيار» (٣/ ٤٤٦).

وسلطان يسقط، وأمم فتية قوية تَنقَرِض، رجال يذهبون بطريقة لا تخطر علىٰ بال، ضعيف يقوىٰ، قويٌّ ينهار، خسارة بعد ربح، سعة بعد ضيق، شدة بعد يُسْر، وإنما يختلف الناس بمقدار استفادتهم مما مرَّ بغيرهم من التجارب، فجعلوها مدرسة تعلمهم كيف يتعاملون مع الدروس التي مرَّت بغيرهم، وقد تكرر وقوعها عليهم.

❀❀❀

وَاجْبُرْ خَوَاطِرَ مَن أَتَوْكَ وَقَد شَكَوْا فَـالهَمُّ يُـزْرِي بِالحَلِـيمِ وَيُلْجِـمُ

الدنيا مليئة بالأحداث، مُشبعة بالآلام، وقلوب الناس -لكثرة ما يمرُّ بها من المواقف المزعجة التي تصدِّع بناءها- تحتاج إلىٰ ترميم، وكثرة الهموم تضعف العقول، وتُزري بالحليم؛ أي: تستخف به وتُنقِص إدراكه، وتلجمه؛ أي: توقفه عن التبصر في أمره حتىٰ يصير عاجزًا عن التصرف، فيحتاج المرء حين ازدحام فكره -وإن كان ذا قوة وحلمٍ وسداد- إلىٰ أن يلجأ إلىٰ غيره طلبًا في أن يعينه علىٰ تمييز طريقه، وأن يجبر خاطره.

والخاطر: هو في الأصل: ما يَرِدُ علىٰ القلب من الهَوَاجس والأفكار، ثم أُطلِق علىٰ القلب.

وجبر الخواطر؛ أي: تثبيت الآخَر، ورفع هِمَّته، وتَهوين مصيبته، وإقالة عثرته، والأخذ بيده حتىٰ يقف علىٰ قدمه.

ولذلك تعظم الحاجة لمن يدخل السرور والسعادة علىٰ الآخرين ولو بكلمة صغيرة، تلمُّ شعث قلوبهم، وتجمع شتات أفكارهم، فالناس إذا كثرت همومهم يسرع بهم الانكسار، وتختلط في مخيلتهم الأفكار، ويصعب عليهم اتخاذ القرار، حتىٰ في الأمور الصغار.

وجبر الخواطر من نبيل أخلاق أهل الإسلام، وهو دليل علىٰ سمو النفوس، وسلامة الصدور، ومحبة الخير للخلق، والشفقة والرحمة لهم، وقد سمَّىٰ الله سبحانه نفسه «الجبار»، **ومن معاني هذا الاسم**: أنه الرؤوف الجابر للقلوب

المنكسرة، وللضعيف العاجز، ولمن لَاذَ به ولجأ إليه[١].

كما ورد في نصوص الشريعة ما يدل علىٰ الترغيب بهذا الخلق العظيم، **ومن ذلك**: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ عاتب أفضل خلقه نبيه محمدًا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لأنه أعرض عن ابن أمِّ مكتوم -وكان أعمىٰ- عندما جاءه قائلًا: عَلِّمني ممَّا علَّمَكَ الله، وكان النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ منشغلًا بدعوة صناديد قريش، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ [عبس:١-٤]، فعاتبه الله علىٰ ذلك؛ لِكَيْلا تنكسِر قلوب أهل الإيمان[٢].

وكانت صفية بنت حيي رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا في جملة مَن سُبِي من النساء يوم خيبر، فاصطفاها النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لنفسه، وأعتقها، وجعل عتقها صداقها[٣]، وإنما فعل ذلك لجَبْر ما حصل لقلبها من الكسر؛ لأنها كانت ابنة رئيس بني النضير حُيَي بن أخْطَب اليهودي، فَأُسِرَت، وهذا من أكبر الإذلال.

وأُخِذَ مِن هذا: أنه ينبغي للإنسان أن يُرَاعي قلوب الناس، فإذا انكسر قلب شخص فليحرص علىٰ جبره بما استطاع؛ لأن في هذا فضلًا عظيمًا، والإنسان ينبغي له أن يراعي الناس بنفسه؛ بمعنىٰ أن يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به.

ومعلوم أن الإنسان إذا انكسر قلبه يحب من الناس أن يجبروه، فينبغي هو أيضًا أن يجبر قلوب المنكسرةِ قلوبُهم:

---

(١) انظر: «تفسير السعدي» (ص ٩٤٦).

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (٢٢/ ٧٢).

(٣) رواه البخاري (٤٢٠٠)، ومسلم (١٣٦٥).

أولًا: إشفاقًا عليهم.

وثانيًا: رجاء لفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[١].

ومن جميل ما يُروىٰ في ذلك: ما ذكره عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مما حدث لوالده أيام الفتنة، حين جُلد وعُذِّب في ذات الله، قال: «كنت كثيرًا ما أسمع والدي يدعو في صلاته، يقول: رحم الله أبا الهيثم، غفر الله لأبي الهيثم، عفا الله عن أبي الهيثم، فقلت: يا أبه، مَن أبو الهيثم حتىٰ تدعو له في كل صلاة؟، قال: أبو الهيثم الحداد، اليوم الذي أُخرجت فيه للسياط، ومُدت يديَّ إلىٰ العقاب، إذا أنا بإنسان يجذب ثوبي من ورائي ويقول لي: تعرفني؟ قلت: لا، قال أنا أبو الهيثم العيَّار، اللص الطرَّار، مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني ضُربت ثمانية عشر ألف سوط بالتفاريق، وصبرت في ذلك علىٰ طاعة الشيطان لأجل الدنيا، فاصبر أنت في طاعة الرحمن لأجل الدِّين»[٢].

والأيام تنقضي، والأحداث تتغير، والأحوال تتبدل، ويئول العسر إلىٰ يسر، ولن يتذكر الإنسان في خِضمِّ هذه الأحداث إلَّا من جَبَر مُصَابَه حين جاء إليه شاكيًا، ووقف إلىٰ جانبه في موقف يُرىٰ أنه ليس بالكبير الذي يستوجب الشكر، لكن المصاب يراه من أعظم المواقف علىٰ الإطلاق، لأنه كان في حال قد أغلق فيه عقله، وضعف فيه تمييزه، وكَثُرَت حوله الاختيارات وعجز أن يختار منها، فجاءه من أعانه علىٰ تثبيت قدمه علىٰ الطريق، حتىٰ استطاع المضي قدمًا، وقد كان يظن في نفسه أنه قد عاين الهلاك والسقوط.

---

(١) انظر: «فتح ذي الجلال والإكرام» لابن عثيمين (١١/ ٢٣٢).

(٢) انظر: «محنة الإمام أحمد بن حنبل» لعبد الغني المقدسي (ص١٤٨).

وَالـنَّاسُ إِنْ خَالَطْـتَهُم عَجَـبًا تَـرَىٰ مِـثْلُ الطُّـيُورِ عَلَـىٰ الفَـرَائِسِ حُـوَّمُ

من المعلوم أنَّ المرء في هذه الحياة لابدَّ له من مخالطة الناس والتعامل معهم، ومن أجل أن يكون ثابت الخُطَا في سَيْرِهِ، وحتىٰ لا يصطدم بواقع لم يتصوره، لابدَّ من فهم طريقة التعامل مع الناس، وأهم ذلك أن تكون هذه المخالطة نافعة، فلا يبدد وقته، ويتخلىٰ عن حق نفسه ومَن تحت يده في سبيل تحقيق أهداف الآخرين، وأن يكون أعظم أهدافه إصلاح شؤون مَن يخالطهم قدر الإمكان، ويصبر علىٰ ما يناله من الضيق والأذىٰ خلال ذلك، فقد قال النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ خَيرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ**»[1].

كما أنَّ من العقل والحكمة أن يستحضر دائمًا المعرفة بأنَّ طبائع الناس تختلف، وجرَّاء ذلك تختلف أهدافهم والسبل التي يسلكونها من أجل تحقيق مطالبهم، ومثل حالهم في ذلك مثل الطير الذي يبحث عن فريسة، فإذا لاحت له انقضَّ عليها، وكان نصيبه منها بحسب انقضاضه، فمن مُقِل ومُستَكثِر، ومن قانع وآخر طمَّاع ليس لرغبته غاية أو حدٍّ.

ومن علم هذه الحقيقة الثابتة، جعل معاملته مع الخلق من خلال هذا المنظار طلبًا للسلامة، وتعامل بحسن الظن، لكن في الوقت ذاته لا يجعل لأحد سبيلًا عليه ليتلاعب به أو يخادعه، فإنَّ النظر إلىٰ الناس بميزان واحد دليل علىٰ جمود العقل وأنه لم تُحنِّكْه التجارب، وكم وقع كثير من الناس في الخطأ أو المصائب

(١) رواه الترمذي (٢٥٠٧)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الأدب المفرد» (٣٠٠).

التي قصمت ظهورهم، بسبب أنهم تعاملوا مع جميع من يلتقون بهم بحسن النية، أو أنهم قدموا سوء النية في كل تعامل مع الآخرين!

والاعتدال: أن يعرف المرء أن الناس يختلفون فيما يذهبون إليه، وكما أنه يوجد من الناس من يخاف الله، ويتحرىٰ رضوان الله في كل أعماله، فكذلك يوجد مَن يظهر الود واللين مع الخلق، وهو يتعامل بالكر والفر، والخبث والمكر، ليلحق بهم الضرر في دينهم ودنياهم.

ولا زال الناس يمدحون ذوي العقل والفطنة، والعاقل الفطن هو الذي يميز من حوله، فلا يرضىٰ أن يستغفله أحد، ولا يمتطيه مخادع.

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لستُ بخِبٍّ -مُخَادع- ولا الخِبُّ يخدعني».

وقال عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما رأيت أحدا كلَّم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلا رحمته، لأنه كان لا يخدع أحدًا لفضله، ولا يخدعُه أحد لفطنته».

وقيل لرجل: «فيك فطنة، فقال: ما ذنبي إذ خلقني الله عاقلًا»[1].

❀❀❀

(١) انظر: «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» للراغب الأصفهاني (١/ ٤١).

وَالمَـرْءُ لَـوْ أَمْـسَىٰ وَأَصْـبَحَ نَائِـيًا سَـيَنَالُهُ طَـيْشُ الكَـلَامِ وَيَـأْلَمُ

لابد أن يعلم المرء أنه لن يسلم من إيذاء الناس وكلامهم فيه، ولو عاش حياته نائيًا؛ أي: بعيدًا عنهم، فإنه لابدَّ وأن يمَسَّه طيش الكلام؛ أي: المائل الذي لا هدف له، ولابدَّ أن يحصل له الألم بسبب ذلك، وإذا لم يبدر منه ما يستحق بسببه الأذىٰ كان وقع الألم علىٰ نفسه أشد؛ لكونه عقوبة بلا ذنب.

ومن أجل ذلك كان من المفترض أن يُعِدَّ المَرءُ نفسه لتقبل مثل ذلك واقعًا، وإن كان تقبله نفسيًّا أمرًا صعبًا، فالناس لا زال يتكلم بعضهم في بعض، والدوافع لذلك كثيرة، قد يكون الكلام بحق، أو لعدم تصور، أو لظلم، أو حسد، وغير ذلك من الأسباب.

وليعلم الإنسان أن السلامة من الناس أمر بعيد المَنَال، وإن استجمع أفضل الخصال، وأجمل الخِلال، فإذا كان النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مع عظيم قدره لم يسلم من أذىٰ الكفار، والكيد له بكل سبيل، وتنفير الناس عنه، وتحذيرهم منه، بالرغم مما كانوا يعلمونه عنه من صدق نبوته، وعظيم أخلاقه، وحسن سجاياه، فغيره من باب أولىٰ أن يقع به الأذىٰ؛ خصوصًا إذا كان من الدعاة إلىٰ السبيل الذي كان عليه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ومُخَالطة الناس تكشف للمرء ما سُتِر عنه، وكلما كان المرء أكثر عملًا، وأوفر حظًّا في بلوغ أهدافه، تجد أنَّ السِّهام تتوجه إليه، فلا يطمع أحدٌ بأن يسلم من كلام حاسد، ووشاية حاقد، وتنقيص لئيم، وكلمة سوء من كريم لكن خانه التوفيق فتكلم بما لا يليق.

ومن نظر في حال السلف رأىٰ كمال عقولهم، وتبصرهم في أحوال الخلق، ولذلك لم يُثنِهِمْ الكلام عن العمل ولا بلوغ أمل، وعلموا لصحة عقولهم أنهم لو فَعَلُوا ما فَعَلُوا لن يستطيعوا أن يمنعوا كلام الناس، علىٰ حد قول القائل:

لَـيسَ يَخلُـو المَـرءُ مِـن ضِـدٍّ وَلَـوْ حَـاوَلَ العُـزلَةَ فِـي رَأسِ جَـبَلْ

فأعرضوا عن تتبع كلام المتكلمين، وأقبلوا علىٰ شأنهم وإصلاح أحوالهم، فبلغوا ذروة المجد، وأراحوا عقولهم من التعب والكَدِّ.

قال الربيع بن صبيح: «قلت للحسن البصري: إن هاهنا قومًا يتبعون السقط من كلامك ليجدوا إلىٰ الوقيعة فيك سبيلًا، فقال: لا يكبر ذلك عليك، فلقد أطمعت نفسي في خلود الجنان فطمعت، وأطمعتها في مجاورة الرحمن فطمعت، وأطمعتها في السلامة من الناس فلم أجد إلىٰ ذلك سبيلًا؛ لأني رأيت الناس لا يرضون عن خالقهم فعلمت أنهم لا يرضون عن مخلوق مثلهم»[(١)].

وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس إلىٰ السلامة من الناس سبيل، فانظر إلىٰ ما يصلح دينك فالزمه»[(٢)].

ولقي الإمام أحمدُ بن حنبل حَاتمًا الأصم فسأله: «كيف التخلص من الناس؟ قال: أن تُعطيهم مالك، ولا تأخذ من مالهم، وتقضي حقوقهم، ولا تستقضي أحدًا حقك، وتحتمل مكروهَهم، ولا تُكرِههم علىٰ شيء. فأطرق أحمد، فنكت بأصبعه الأرض، ثم رفع رأسه إليه، ثم قال: يا حاتم، إنها لشديدة، إنها لشديدة،

(١) «حلية الأولياء» (٦/ ٣٠٥).

(٢) «حلية الأولياء» (٩/ ١٤٧).

قال حاتم: وليتك تسلم، وليتك تسلم، وليتك تسلم»[١].

ومع القول بأن المرء لن يَسلَمَ من الناس علىٰ كل حال، فلا يعني ذلك أن يضع المرء نفسه موضع التهمة ثم يريد من الناس ألَّا يتكَلَّمُوا فيه، بل الواجب علىٰ العاقل أن يَصُون عرضه عما يخدشه، وألَّا يفتح الباب للناس أن يتكلموا به، فقد قيل:

وَمَـــن دَعَـــا الـــنَّاسَ إِلَـــىٰ ذَمِّـــهِ ذَمُّـــــوه بِالحَـــــقِّ وَبِالـــــبَاطِلِ

وقد جاء في الحديث أن صفيَّة زوج النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مُعْتَكِفًا، فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلًا، فَحَدَّثْتُهُ، ثُمَّ قُمْتُ فَانْقَلَبْتُ، فَقَامَ مَعِي لِيَقْلِبَنِي، فَمَرَّ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَلَمَّا رَأَيَا النَّبِيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَسْرَعَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **عَلَىٰ رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ**. فَقَالَا: سُبْحَانَ اللهِ يَا رَسُولَ اللهِ! فَقَالَ: **إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَىٰ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءًا** -أَوْ قَالَ: **شَيْئًا**-»[٢].

وهذا أدبٌ نبوي عظيم يُعَلمنا النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من خلاله أنه يُستَحَب التحرز عن مظَانِّ السوء، وطلب السلامة من الناس بإظهار البراءة من الريب[٣].

❀❀❀

(١) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٤٨٧).

(٢) رواه البخاري (٣٢٨١)، ومسلم (٢١٧٥).

(٣) انظر: «شرح السنة» للبغوي (١٤/ ٤٠٥).

وَالنَّاسُ لَن تَرْضَىٰ بِسَعْيِكَ فَاحْتَكِمْ   أَيْنَ الَّذِي رَضِيَ الْخَلَائِقُ عَنْهُمُ؟

غالبُ طِبَاع الناس أنهم لا يرضون عمل عامل مهما عمل، ولا ينصف بعضهم بعضًا فيما يقدمه من سعيٍ، سواء كان سعيه لنفسه أو للآخرين، وأكبر دليل ما يقوم به الناس من نقد بعضهم بعضًا، كُلٌّ حسب عقله وتصوره، وكل واحد يزعم في نفسه أن الصواب معه.

ولذلك فالأوفق للمرء أن يكون لنفسه منصفًا، وأن يواصل سعيه إلىٰ حيث نوىٰ، مع الاستعانة بالله علىٰ قضاء أموره، ولا يستغني مع ذلك من مشاورة أهل السداد والرأي، لكن لا يجعل كلام الناس هو مقياس التقدم والتأخر فيما يأخذ أو يذر؛ لأنه إذا فعل ذلك اضطربت أموره، وتوقف سيره.

وليجعل لنفسه علىٰ نفسه شاهدًا وحكمًا بسُؤالها: أين الذي صنع شيئًا، أو اتخذ موقفًا فرضي عنه جميع الخلائق؟ فهذا أمر مُحَال، ليس إلىٰ بلوغه من سبيل.

وفي هذا البيت تسلية للساعي في حاجات الناس وبذله وقته وراحته من أجلهم، بأنه مهما سعىٰ فلابدَّ أن يلاقي من لا يشكر فضله، بل وقد يكون أقصىٰ ما يريد منه بعد أن سعىٰ له بخير أن يكف شرَّه ولسانه عنه، فلا ينال ذلك، فلا يغتم ولا يهتم، فالإنصاف عند الناس عزيز، وغالب الناس أنهم ينسون عشرات ما يقدمه لهم الآخرون بعجز مرة، وهذا من جحد المعروف وسوء الطبع.

ولذلك من أعظم ما يتسَلَّح به الساعي إلىٰ الخير: أن يعمل العمل لوجه الله

خالصًا، لا يريد به مدحًا ولا ثناء؛ لأنه إن صنع ذلك لن يضره من جحد معروفه، أو آلمه بقسوة عباراته، أو بَهَته بكذبه.

صحيحٌ أن النفس تحتاج إلىٰ حقها مِن ذكرها بالخير إن فعلته، لكن ماذا عسىٰ أن يصنع المحسن مع ناقص المروءة؟!

وما تراه من شكوىٰ كثير من الناس بسبب جحود الآخرين؛ لأنَّ كثيرًا منهم في الغالب كان سعيه من أجل المقابل، ولم يستحضر النية في أن يكون العمل لله فيطلب الثواب منه سبحانه، فحين لم يشكر الناس فضله ازداد ألمًا وندمًا.

وأما من سعىٰ لله، فتجده إذا رأىٰ جحودًا أو صدودًا، سلَّىٰ نفسه بقوله: إنما صنعته لله، فاطمأنت نفسه، وصلح بالُه، وانشرح صدره.

فَارْفُــقْ بِنَفْــسِكَ لَا يَــزِيدُ عَــنَاؤُهَا فَــتَمَلَّ مِــنْ طُــولِ الطَّــرِيقِ وَتَــسْأَمُ

بعد أن ذكر أحوال الناس التي تُكتشف من خلال المخالطة، واختلاف أهدافهم فيما يسعون إليه، وأنَّ المرء لن يسلم من كلامهم وإن عاش وحيدًا فريدًا، وأنهم لن يُعجبوا بسعي ساعٍ وإن كان عمله صوابًا، ذكر ما يجب أن يكون عليه المرء من أَخْذ نفسه بالرِّفق واللين، حتىٰ لا يزيدَ عناءها باستشعاره الندم علىٰ ما قدَّم، ولومها علىٰ ما تعاملت به من الصنيع الحسن.

وذلك أنَّ ما يحدث من الناس أمرٌ متوقَّع، وأخذ النفس بالمشقة يؤدي بها إلىٰ السآمة والملل وترك العمل، والطريق لا زال طويلًا، وكلما تقدم عمر الإنسان ظهر أمامه من الوقائع الشديدة ما يهوِّن عليه ما مضىٰ قبلها، وإن كان ما مضىٰ ليس بِهَيِّن، فإذا أخذ نفسه بالشدة والعنف وكثرة اللوم والتوبيخ، أرهقها وأتعب روحه، وضمَّ إلىٰ تعب بدنه تعب قلبه.

والرفق بالبدن ليس بأولىٰ من الرفق بالقلوب والأرواح، فكما أنه إذا تعب من السير وقف ليريح بدنه، فكذلك لابدَّ أن يريح قلبه من الهواجس وتعريضها للهموم والغموم، ومفتاح ذلك: أن يتعلم الهدوء، ويتجنَّب شد الأعصاب، وأن يعتاد التروي في تعامله، فيسعىٰ لتحقيق أهدافه، ونجابة شخصه، لكن برفق، فما جاءه أخذه، وما لم يحصل له لم يتبعه نفسه بقتلها كمدًا وحزنًا.

ويقين المسلم بأنَّ العطاء والمنع بيد الله تعالىٰ، ممَّا يريح قلبه، ويسكِّن جأشه، فيجب عليه حينئذٍ أن يَرفُقَ بنَفسِهِ في سيرها، حتىٰ يستطيع بلوغ المنزل الهانئ والعَيش الرَّغِد.

وَسَلَامَةُ الصَّدْرِ السَّلِيمِ غَنِيمَةٌ مَنْ حَازَهَا يُسْقَ النَّعِيمَ وَيُطْعَمُ

سلامة الصدر: هي نقاء القلب وطهارتُه من الغِل والحِقد والغِش والحَسَد، مع طيب النفس، وحُسْنِ السَّريرة، وهي من الفضائل العظيمة والنعم الجسيمة التي لا يبلغها الإنسان بسعيه، ولكنها رزق من الله تعالىٰ ومِنَّة وفَضْل، يتفضل بها سبحانه علىٰ من شاء من عباده ممن أراد بهم خيرًا؛ لأنَّ فيها صفاء الحياة، وانشراح الصدور، وبَرْد العيش، وحُب الخير للآخرين، وإراحة القلب من العناء الذي يجلبه كثرة التفكير في الأحوال والمقادير، من منعٍ وعطاء، ولين وجفاء، وغدر ووفاء، وغير ذلك من المنغصات التي تمنع السعادة وتجلب الأحزان، فسليم الصدر قد آثر راحة نفسه، وهناء عيشه بتطهير قلبه من الأدران، فأذعنت له القلوب بالمحبة، والنفوس بالقبول.

وسلامة الصدر من النعيم المُعَجَّل للمسلم في هذه الدنيا، حيث لم يشتغل بما فيه ضرر قلبه من الغل والأحقاد التي تتعب القلوب، وتُضَيِّق العيش، ولذلك كان من نعيم أهل الجنة: أن ينزع الله ما في صدورهم من الغل؛ وذلك لأنه من موانع السعادة، فقال تعالىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧].

كما أنها دليل علىٰ فضل من اتَّصف بها، وسبب من أسباب دخول الجنة، فقد سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: **كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ**. قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: **هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ**،

لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ»[١].

وسلامة الصدر من أخلاق النبوة: قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَقُولُ: **اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»[٢].

كما أنَّ هذا الخلق النادر من علامات المؤمنين المخبتين، فقد قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْمُؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيمٌ، وَالْفَاجِرُ خِبٌّ لَئِيمٌ**»[٣].

ومعنىٰ ذلك: أن المؤمن يغره كل أحد؛ لأنه لا يعرف الشر، وليس بذي مكر ولا فطنة للشر، فهو ينخذع لسلامة صدره وحسن ظنه.

فالمؤمن المحمود من كان طبعه الغرارة وقلة الفطنة للشر وترك البحث عنه، وليس ذلك جهلًا منه، لكنه كرم وحُسن خُلُق.

والفاجر من عادته الخُبث والدهاء والتوغل في معرفة الشر، وليس ذلك منه عقلًا لكنه خبث ولؤم، فالمؤمن غر كريم؛ لأن خلق الإيمان يُعطي المعاملة بالظاهر، والمنافق خبيث لئيم علىٰ نفسه حيث لم يسلك بها طريق نجاتها وسعادتها[٤].

ولا يعني كون الإنسان سليم الصدر أن يكون منقادًا لأهل الشر، وألعوبة

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢١٦)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٨٨٩).

(٢) رواه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢).

(٣) رواه أبو داود (٤٧٩٠)، وهو حسن، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٩٣٥).

(٤) انظر: «فيض القدير» للمناوي (٦/ ٢٥٤).

بأيدي أهل الخداع، ففرق بين سلامة الصدر وكون الإنسان أضحوكة لأصحاب الريبة والانحطاط، فسلامة الصدر اجتناب الظنِّ السيِّئ بمن ظاهره الخير، لكن لا يعني ذلك الانقياد لمن كان ظاهر عمله الشر، أو أنه يريد أن يعبر من خلاله إلىٰ هدف رديء.

وقد كثرت الوصية بسلامة الصدر من قِبَل أهل الصلاح والرَّشَد، وذكروا سيرة مَن اتصفوا بها، وعملوا بها، فابتهجوا بها، واستقامت لهم حياتهم:

قال إياس بن معاوية بن قرة عن أبيه، في وصف أصحاب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «كَانَ أَفضَلُهُم عِندَهُم -يَعنِي: المَاضِينَ- أَسلَمَهُم صَدرًا، وَأَقَلَّهُم غِيبَةً»[(١)].

وعن سفيان بن دينار قال: «قُلتُ لِأَبِي بَشِيرٍ -وَكَانَ مِن أَصحَابِ عَلِيٍّ-: أَخبِرنِي عَن أَعمَالِ مَن كَانَ قَبلَنَا؟ قَالَ: كَانُوا يَعمَلُونَ يَسِيرًا وَيُؤجَرُونَ كَثِيرًا. قُلتُ: وَلِمَ ذَاكَ؟ قَالَ: لِسَلَامَةِ صُدُورِهِم»[(٢)].

وقال زيدُ بنُ أسلَمَ: «دخلت علىٰ ابن أبي دُجَانة وهو مريض، وكان وجهه يتهلل، فقلت له: ما لكَ يتهلَّلُ وجهك؟ قال: ما من عمل شيء أوثق عندي من اثنتين: أما إحداهما: فكنت لا أتكلم بما لا يعنيني، وأما الأخرىٰ: فكان قلبي للمسلمين سليمًا»[(٣)].

وعن الفضيل بن عياض رَحِمَهُٱللَّهُ **قال:** «ما أدرك عندنا مَن أدرك بكثرة نوافل

(١) «مصنف بن أبي شيبة» (٣٦٣٣٣).

(٢) «الزهد» لهناد الدارمي (٢/ ٦٠٠).

(٣) «صفة الصفوة» لابن الجوزي (١/ ١٨٤).

الصلاة والصيام، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأنفس، وسلامة الصدور، والنصح للأمة»[١].

وقال قاسم الجوعي: «أفضل طرق الجنة سلامة الصدر»[٢].

فعلىٰ المرء إن أراد السعادة، أن يكون سليم الصدر، ويتخذ من الأسباب ما يبلغ به هذه الغاية، وأن يتفقد قلبه بين الفينة والأخرىٰ، ويسعىٰ في إصلاحه وعلاج ما قد يعتريه من الأمراض، فهو القائد إلىٰ كل سلوك، خيرًا كان أو شرًّا، وقد قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[٣].

وليعلم العاقل البصير أنَّ مَن لم يعتد علىٰ سلامة الصدر، قد حُرِم خيرًا كثيرًا، وحكم علىٰ نفسه بالشقاء، وصار حاله كما وصفه ابن حزم رَحِمَهُٱللَّهُ بقوله: «رأيت أكثر الناس إلَّا مَن عصم الله تعالىٰ -وقليل ما هم- يتعجلون الشقاء والهم والتعب لأنفسهم في الدنيا، ويدَّخرون عظيم الإثم الموجب للنار في الآخرة، بما لا يحظون معه بنفع أصلًا، من نيَّات خبيثة يضبُّون عليها؛ من تمني الغلاء المهلك للناس وللصغار ومن لا ذنب له، وتمني أشد البلاء لمن يكرهونه، وقد علموا يقينًا أن تلك النيات الفاسدة لا تعجِّل لهم شيئًا مما يتمنونه، وأنهم لو صفوا نياتهم وحسَّنوها؛ لتعجلوا الراحة لأنفسهم، وتفرغوا بذلك لمصالح أمورهم،

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٢٣٥).

(٢) «صفة الصفوة» (٢/ ٣٨٩).

(٣) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

ولاقتنوا بذلك عظيم الأجر في المعاد، من غير أن يؤخر ذلك شيئًا مما يريدونه أو يمنع كونه، فأي غبن أعظم من هذه الحال التي نبهنا عليها، وأي سعد أعظم من التي دعونا إليها»[1].

❀❀❀

(١) «الأخلاق والسير» لابن حزم (ص٢٠).

وَإِذَا هَمَمْتَ بِبُغْيَةٍ فَاظْفَرْ بِهَا وَاقْطِفْ ثِمَارَكَ إِنْ صَفَا لَكَ مَوْسِمُ

علىٰ المرء العاقل الفطن أن يكون عازمًا أمرَه إذا نواه، وألَّا يتأخر حتىٰ يفوت أوانه، فيندم علىٰ فواته وخسرانه، فإذا همَّ بِبُغْيَة؛ أي: عزم علىٰ الحصول علىٰ ما كان يرغب به ويتمناه؛ وجب عليه أن يظفر به: والظفر بالشيء: الفوز به، وعليه أن يستغل مواسم حصوله، والموسم: وقت ظهور الشيء وزمانه.

والمسارعة إلىٰ تحصيل ما طمعت فيه النفس من الخير، هذا من علامات التوفيق للمرء، حيث لم يفوِّت أمرًا له فيه مصلحة، وقد توفرت دواعيه وأسبابه المعينة علىٰ تحقيقه.

وإذا كان هذا الأمر مما ينفعه في آخرته، كانت المسارعة له أولىٰ وآكد، فإذا لاحت له الأمنية، أتبعها سريعًا بالعمل علىٰ تحقيقها حتىٰ تكون واقعًا؛ لأنَّه إذا تأخر إما أن يجعل للشيطان سبيلًا عليه، فيثنيه عمَّا أراد من العمل، وإما أن يُفتح عليه باب الكسل، فيتراجع عما كان قادرًا علىٰ تحقيقه.

وكم خذل الكسل أرباب العمل، وأنت ترىٰ كم من الناس وقد نووا أعمالًا فيها من الخير والنجاح الشيء العظيم، لكنهم تراجعوا عن ذلك، بسبب التسويف والمماطلة والتأخير، ففاز غيرهم بما خططوا له؛ لأنهم تأخروا عن التنفيذ، وسارع هو إلىٰ الإنجاز، والحياة فرص، وإنما الأعمال فيها كقطار سائر، إن لم تركبْه أنت فتصل إلىٰ ما تريد، ركبه غيرك فوصل إلىٰ ما يحب ويرغب.

وعمل الخير لا تحمد فيه الأناة ولا التأخير، وهذا ما فقهه السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، ولذلك كانوا أسرع الناس في العمل، وأبعدهم عن التسويف والكسل.

قال خالد بن مَعْدَان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا فتح لأحدكم باب خير فليسرع إليه، فإنه لا يدري متىٰ يغلق عنه»(١).

ولذلك فإنَّ من المعلوم أنَّ من استغل مواسم البذر والحصاد، فاز في قطف الثمر، وحمد سعيه وشكر، وسُرَّت نفسه في المنزل الذي أعدَّه لوقت راحته، وبذل من أجله أغلىٰ أوقاته، حين بقي غيره يخوض في لُجَج الأماني، قد فاته الرَّكْبُ، وقطعوا الدرب، وهو لا زال ينتظر فرصة سانحة، وكلما جاءت إليه، ووصلت إلىٰ بابه، قال: سأنتظر ما هو أفضل، فلم يفز بمطلوب، ولم يتحقق له مرغوب.

فإذا بدا لك موسم تزينت ثماره، ولاحت أنواره، فاستغله أفضل استغلال، مع صدق التوكل علىٰ الله، والبُعد عمَّا فيه سخطه، والبراءة من الحول والقوة، فحريٌّ بك أن تنال أمانيك، وتحقق أهدافك، واجتنب أفعال المتكاسلين، وأقوال المتخاذلين، فهم لم يُقَدِّمُوا لأنفسهم نفعًا وقد كان يلوح بين أعينهم، فلا تطمع أن يقدِّموه إليك.

❀❀❀

(١) «حلية الأولياء» (٥/ ٢١١).

وَالعَجْزُ يَمْنَعُ مِنْ بُلُوغِكَ رُتْبَةً يَمْضِي الرِّفَاقُ وَلَمْ تَزَلْ تَتَبَرَّمُ

وكما أنَّ الكسل يحجب صاحبه عن بلوغ غايته، فكذلك يفعل العجز من منع صاحبه من أن يصل إلىٰ مراتب المجد، ومن أجل ذلك فقد استعاذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العجز والكسل[١].

والفرق بين الكسل والعَجْز: أنَّ الكسل: ترْك الشَّيءِ مع القدرة علىٰ الأخذ في عمله، والعَجْز: عدم القدرة علىٰ الشيء.

والعجز والكسل قَرِينان، فإنَّ تخلف مصلحة العبد وكماله ولذته وسروره إما أن يكون مصدره عدم القدرة وهذا هو العجز، أو يكون قادرًا عليه لكن تخلف لعدم إرادته فهو الكسل، وصاحب الكسل يُلام عليه.

والعجز نوعان:

أحدهما: ما لا يكون للمرء قدرة علىٰ دفعه، فهذا مما لا يلام عليه.

والثاني: عجزٌ يكون من ثمرات الكسل، فيكسل المرء عن الشيء الذي هو قادر عليه، وتضعف عنه إرادته، وهذا هو العجز الذي يلام عليه[٢]، وهذا ما يستحق أن يطلق عليه: العجز المُتَوَهَّم، فكم من الناس خطط لأمور تُغيِّر حياته، وتجعله ينطلق نحو أمنياته، وقد توفَّر لديه من المقوِّمات ما يوصله إلىٰ ما أراد، لكن دهمه الوهم بأنه لا يستطيع، فتابع أوهامه حتىٰ صارت حقيقة، وكانت وساوسه

(١) رواه البخاري (٦٣٦٩).

(٢) انظر: «مفتاح دار السعادة» لابن القيِّم (١/ ١١٣).

عونًا لنفسه عليه، فوقف حائرًا لا يتقدَّم ولا يتأخر، عاجزًا عن اتخاذ قرار ربما يُغيِّر واقعه إلىٰ واقع لم يكن يحلم به.

ولمَّا رأىٰ أقرانه ورفاقه قد حققوا آمالهم، وهو قد كان ربما يملك من الأسباب ما ليس مُتَوفِّرًا بين أيديهم، علم أنَّ عجزه الذي توهَّمه قاده إلىٰ الكسل عن بلوغ مُنَاه، فوقف مُتبَرِّمًا؛ أي: ضجرًا مستاءً، حين مضىٰ الرفاق إلىٰ مراتبهم، وحلوا أماكنهم، ولا زال هو في مكانه قد تمكن الخوف في قلبه حتىٰ منعه من تحقيق هدفه.

وَالابْـنُ غَـرْسٌ فَاجْـتَهِدْ فِـي سَـقْيِهِ تُدْمِـي بِـهِ أَنْـفَ العَـدُوِّ وَتُـرْغِمُ

الأبناء هبة من الله، تبتهج بهم الحياة، وتستأنس بهم القلوب، وتستلذ بهم النفوس، وهذه فطرة جعلها الله في قلوب الخلق، ولا يعلم حقيقتها إلا من جرَّب الأبوة أو الأمومة، فإذا أصبح في هذه الحال علم مقدار هذه النعمة، ولا أدلَّ علىٰ ذلك من قول الله تعالىٰ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٦].

ومن أجل أن يكتمل الفرح بهؤلاء الأبناء، لابدَّ من بذل الجهد حتىٰ يكونوا صالحين حقًّا، فعلىٰ قدر الصلاح تكون الثمرة، وعلىٰ قدر الجهد يُحمَد السعي، وحين يوقن المرء أن هذا الابن قطعة منه، وانعكاس لشخصه، فإنَّ ذلك مما يدعوه لأن يجتهد أعظم الاجتهاد في إحسان تربيته، وتقويم سلوكه.

وأهم مَرَاحل التربية: ما يكون في أيامها الأولىٰ، فالتغذية بالآداب في مرحلة الصغر، تؤتي ثمارها سريعًا -بإذن الله-، وتظهر نتائجها عيانًا، وذلك أن الطفل كالغرس اللَّيِّن، إذا أحسن المُرَبي سَقيَه ومراعاته نضجت ثماره وأينعت.

قال محمد بن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانوا يقولون: أكرم ولدك وأحسن أدبه».

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التعلم في الصغر كالنقش علىٰ الحجر»[1].

وقد نبَّه الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **إلىٰ أهمية التأديب في الصغر، فقال**: «فأما التأديب اللازم للأب: فهو أن يأخذ ولده بمبادئ الآداب ليأنس بها، وينشأ عليها، فيسهل

(١) انظر: «أدب المجالسة وحمد اللسان» لابن عبد البر (ص١٠٣).

عليه قبولها عند الكبر؛ لاستئناسه بمبادئها في الصغر؛ لأنَّ نشأة الصغير علىٰ شيء تجعله مُتَطبعًا به، ومن أُغفل في الصغر كان تأديبه في الكبر عسيرًا»[١].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمَن أهمل تعليم ولده ما ينفعه، وترَكَه سدًى، فقد أساء غاية الإساءة، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قِبَل الآباء وإهمالهم لهم، وترك تعليمهم فرائض الدِّين وسننه، فأضاعوهم صغارًا، فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولم ينفعوا آباءهم كبارًا»[٢].

وفي صلاح الأبناء وتحسين تربيتهم، تحقيقٌ للفطرة القابعة في قلب كلِّ أحد، حيث يحب أن يكون ابنه مقدَّمًا، سابقًا لأقرانه، متميزًا عن أصحابه، فيزداد الوالد به فخرًا، وينتشي فرحًا أن حقق ابنه هذه المنزلة.

قال تعالىٰ: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ ﴾ [الحديد:٢٠].

ومما طبع عليه الإنسان: مَحَبَّة ظُهور نجابة ابنه وفضيلته في الفَهْم من صِغَرِهِ، وذلك أنَّ هذا الشيء ميدان للمفاخرة.

ومن أحسَنَ تربية ابنه فقد أدمىٰ أنف عدوِّه وأرغمه، ومعنىٰ أرغمه؛ أي: ألصقه بالرَّغام، وهو التراب، هذا هو الأصل، ثم استعمل في الذل والعجز عن الانتصاف، والانقياد علىٰ كُرْه[٣]، ومن أمثال العرب: «من أدَّب ابنه صغيرًا، قرَّت عينه كبيرًا».

---

(١) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص٢٢٨).

(٢) «تحفة المودود بأحكام المولود» لابن القيم (ص٢٢٩).

(٣) انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٢/ ٢٣٨).

و: «من أدَّب ابنه؛ أرغَمَ أنفَ عَدوِّه»[١].

وبحسن التربية يتميز الشخص عن غيره، ويكسب من محاسن الصفات ما فات علىٰ الآخرين كسبه، ويحقق من الثمرات ما يكون سببًا في رفعته والرجوع علىٰ مُرَبيه بالثناء.

ومن أعظم الأمور التي يقوم بها الوالد: أن يربي أولاده علىٰ الصلاح، وفي ذلك يقدِّم إلىٰ المجتمع هدية عظيمة، تحفظ الاتزان، وتنتج الثمار اليانعة التي لا ينقطع نفعها، وأعظم من ذلك أن يقدم لنفسه عملًا عظيمًا، كبير النفع، عظيم الأجر، يعرف قدره حين لقاء ربِّه، حيث يجد لنفسه أجر عملٍ لم يكسبه في حياته، ولم يسعَ للحصول عليه في ذاته، ومع ذلك وجد أجره محفوظًا!

فقد جاء في حديث النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَّىٰ لِي هَذِهِ؟ فَيَقُولُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ**»[٢].

فلما أحسن الوالد تربية ابنه، وقوَّمه علىٰ الصلاح متقربًا بذلك لله ربِّ العالمين، جزاه الله أن جعل عمله مستمرًّا، وأجره مستقرًّا، بسبب عمل هذا الابن الصالح، الذي أحسن الوالد تربيته؛ حيث ربَّاه علىٰ الصلاح، وقاده

---

(١) «لباب الآداب» لابن منقذ (ص ٢٢٨).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١٠٦١٠)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٥٩٨).

صلاحه أن بَرَّ بوالديه بالدعاء والاستغفار، فَثَقَّل الله موازين والديه بعمله.

وهذه من الثمرات التي يجب أن ينبَّه إليها الناس، فقد لا يكون الوالد ذا عملٍ صالح كبير، ويُرزَق بولدٍ صالح، فالواجب عليه أن يعينه علىٰ صلاحه، ويوفر له أسباب التمسك بالهداية، ويتيقَّن أن هذا الابن كنزٌ مُدَّخر، وأجرٌ لا ينقطع، ورحمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أُهدِيَت إليه، فلابدَّ أن يتلقاها بالشكر.

وأعظم أبواب الشكر: إعانة الابن علىٰ ما يكون فيه صلاح حاله واستقامته.

وَاعْلَمْ بِأَنَّ العُمْرَ طَيْفٌ عَابِرٌ سُرْعَانَ مَا أَوْقَاتُهُ تَتَصَرَّمُ
ثُمَّ الرُّجُوعُ إِلَىٰ إِلَهِكَ مُفْرَدًا فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ فِي رَحِيلِكَ تَغْنَمُ

لما انتهىٰ الناظم من ذكر جملة من الحِكَم، ختم بهذه الأبيات الواعظة التي يذكر فيها سرعة الأيام، وانقضاء الأعمار، وأن الناس في هذه الحياة بين فطن ومفرط، فنبَّه علىٰ أهمية استغلالها بما يكون فيه النجاة بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، فعمر الإنسان ظل زائل، وطيف عابر: وهو الخيال الذي يجيء إلىٰ الإنسان في منامه، وأيام العمر سرعان ما تَتَصَرَّم؛ أي: تنقضي، فما يشعر الإنسان إلا وقد عاين الحقيقة بعد طول الأمد، فإذا به وما مرَّ به من سالف الأيام إلا كأحلام نائم.

فقد قيل: الدنيا مثل مَنَام، والعيشُ فيها كالأحلام.

وقيل: إنَّ نوحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سُئل: يا أطول النبيين عمرًا، كيف وجدت الدنيا؟ قال: كدار لها بابان، دخلت من هذا، وخرجت من هذا[1].

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «بُعث نوح وهو لأربعين سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلَّا خمسين عامًا، وعاش بعد الطوفان ستين عامًا حتىٰ كثر الناس وفشوا»[2].

ومن علم هذه الحقيقة وعاينها، لم يَأسَ علىٰ ما فاته من الدنيا، ولم يفرح فيها برخاء، ولم يحزن علىٰ بلوىٰ، لعلمه أنه لم يبق مما مرَّ به شيء، لا ترَحَ ولا فرَح، بل إنه وكلما كبر عمره، تراءت له أيام طفولته وكأنها قبل سويعات، فعلم مقدار

(١) انظر: «المدهش» لابن الجوزي (ص٣١٣).
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٦٨).

الأسف فيما فاته من وقت لم يجنِ فيه خيرًا، ولم يستثمره في طاعة.

وإذا علم العبد أنه راجع إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وموقوف بين يديه، ومسؤول عما جنىٰ واكتسب، وجب عليه أن يُحسن العمل، فإنه سيقوم بين يدي الله وحيدًا، ليس له من دونه ولي ولا نصير.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام:٩٤].

وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ**»(١).

ومن عظيم ما وعظ الله به عباده وأنذرهم به، قوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١].

وهذه الآية من آخر ما نزل من القرآن، وقد مات النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعد نزولها بتسع ليالٍ(٢).

ومن أيقَنَ برحيله بعد الإقامة، وأنه سيلاقي ربه، أحسن العمل في هذه الدنيا، وتزوَّد للسفر الطويل، ليغنم السعادة الأبدية، والحياة الدائمة السرمدية، ولم يغب عن ذهنه أنَّ طويل ما يعيشه من الأيام سيعود قصيرًا، وكثيرها سيكون حقيرًا،

(١) رواه البخاري (٦٥٣٩)، ومسلم (١٠١٦).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٧٢٠).

وعليه فلابدَّ أن يكون همُّه الآخرة، ولا ينسَىٰ نصيبه من الدنيا، ولا تكن الدنيا همه وشاغله وكأنه سيعيش فيها مخلدًا، وليكن له في نبيِّه محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أسوة وقدوة، فإنه لم ينافس علىٰ دنيا، ولم يطمع فيها ببقاء، ولذلك فقد عاش فيها عيش الفقراء، وخرج منها ولم يشبع من خبز الشعير[١]، وهو أكرم الخَلْق علىٰ ربه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وما كان ذلك إلَّا لعلمه أنها ليست لحيٍّ سكنًا، وقد جاء عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: «إِنَّ رَسُول اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نَامَ عَلَىٰ حَصِيرٍ، فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَسَدِهِ، فَقُلتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوِ أَمَرتَنَا أَن نَبسُطَ لَكَ وَنَعمَلَ. فَقَالَ: **مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»[٢].

أي: ليس حالي معها إلا كحال راكب مستظل، وهذا تشبيه تمثيلي، ووجه الشَّبَه: سُرعة الرحيل وقلة المكث، فالدنيا زينت للعيون والنفوس فأخذت بهما استحسانًا ومحبة، ولو باشر القلب معرفة حقيقتها ومعتبرها لأبغضها، ولما آثرها علىٰ الآجل الدائم حتىٰ تعامل معها وكأنها دار إقامة، ومن فعل ذلك ألهته عن تذكر كون الآخرة دار مقر[٣].

وقد وصَّىٰ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جماعة من الصحابة بالتقلل من الدنيا، وأن يكون

---

(١) رواه البخاري (٥٤١٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٧٧)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٤٣٨).

(٣) انظر: «فيض القدير» (٥/ ٤٦٤).

بلاغ أحدهم من الدنيا كزاد الراكب[١].

كما أوصىٰ عبد الله بنَ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بذلك فقال: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»[٢].

فلما فهموا أن هذا هو المقصود من الدنيا، جعلوا همَّهم التزود منها للآخرة التي هي دار القرار، واكتفوا من الدنيا بما يكتفي به المسافر في سفره[٣].

وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»[٤].

(١) رواه أحمد (٢٣٧١١)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٢٢٤).

(٢) رواه البخاري (٦٤١٦).

(٣) انظر: «جامع العلوم والحكم» (٢/ ١٩١).

(٤) رواه البخاري (٦٤١٦).

وَارْفَعْ أَكُفًّا بِالضَّرَاعَةِ سَائِلًا حُسْنَ الْخِتَامِ وَتَوْبَةً لَا تُعْدَمُ
قَدْ بَاءَ بِالْخُسْرَانِ عَبْدٌ غَافِلٌ مَعْ عِلْمِهِ أَنَّ الرَّحِيلَ مُحَتَّمُ

يجبُ علىٰ المرء إذا عزم علىٰ السفر أن يستعد لذلك بأخذ ما يعينه علىٰ قطع الطريق وبلوغ المنزل، ومن علم أنه مسافر إلىٰ الدار الآخرة فهو بالاستعداد لذلك أولىٰ وأحرىٰ، فيجب عليه أن يُكثر من الأعمال الصالحات، والتزود من الخيرات، ومع ذلك كله فالواجب عليه ألَّا يغترَّ بعمل، ولا يُطيل الأمل، بل يجب عليه مع حُسْن رجائه بالله أن يكون دائم الوجل، فإنه لا يدري قُبل عمله أم لم يُقبل، وهذا هو دأب الصالحين المخبتين.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠-٦١].

وقد سألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه الآية، فقالت: «يَا رَسُولَ الله، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾؛ أَهُمِ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: **لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُم الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَلَّا يُقْبَلَ مِنْهُمْ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾**»[1].

ولأنَّ الحياة لا تَخلُو من الشبهات والشهوات التي يخشىٰ معها العبد أن يزيغ قلبه؛ وجب عليه أن يدعو الله أن يثبت قلبه علىٰ الاستقامة، وأن يرفع أكفَّ الضراعة بذلك، وأن يكون دائم الدعاء بأن يوفقه الله عَزَّوَجَلَّ دائمًا وأبدًا للتوبة

(١) رواه الترمذي (٣١٧٥)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٦٢).

النصوح، وأن يرزقه عند موته حُسن الخاتمة، ويصرف عنه ميتة السوء، فإنَّ من خُتم له بخير فقد أفلح.

والعَجَب كل العَجَب من عبدٍ أيقن الرحيل والانتقال عن هذه الدنيا إلىٰ الدار الآخرة، ولم يزل غافلًا عما أُمِر به ونهي عنه، حتىٰ يدهمه الأجل وهو في لهوه وغيِّه.

ولذلك فإنَّه ما شَغل قلوب الصالحين ذوي البصيرة، وأضجَّ مضاجعهم، وأرَّق نومهم، إلَّا رجاء حُسن الخاتمة؛ لأنَّ ذلك دليل علىٰ حصول الفرَج، وإشارة إلىٰ قبول الله عَزَّوَجَلَّ للعبد، وعفوه عما كان عنده من الخطأ والزلل، وقد قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا الأَعمَالُ بِالخَوَاتِيم**»(١).

كما أنه دليل علىٰ كريم عطاء الله سبحانه لعبده ورحمته به، وأنه غنيٌّ عن عذابه، وأن تيسير ذلك له محض امتنان منه وتفضل، فقد قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ**. قِيلَ: كَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: **يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ المَوتِ، ثُمَّ يَقبِضُهُ عَلَيهِ**»(٢).

ولابدَّ للمرء -وإن كان مجتهدًا بالعمل الصالح- أن يعظُمَ خوفه من سوء الخاتمة؛ لأنها بوابة الشقاء، وأن تشتدَّ خشيته أن يخذله ذنبه أحوج ما يكون إلىٰ ربه، وهذا من أعظم الفقه، أن يخاف الرجل أن تخذله ذنوبه عند الموت، فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنىٰ.

---

(١) رواه البخاري (٦٦٠٧)، مسلم (٢٦٤٣).

(٢) رواه أحمد (١٢٢١٤)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٣٣٥).

ولقد بكىٰ سفيان الثوري ليلةً إلىٰ الصباح، فلما أصبح قيل له: «كل هذا خوفًا من الذنوب؟ فأخذ عودًا من الأرض، وقال: الذنوب أهون من هذا، وإنما أبكي من خوف سوء الخاتمة».

وكثير من الناس إنما يُحال بينهم وبين حسن الخاتمة، عقوبة لهم علىٰ أعمالهم السيئة، من الانكباب علىٰ الدنيا، والإعراض عن الأخرىٰ، والإقدام والجرأة علىٰ معاصي الله عَزَّوَجَلَّ، وربما غلب علىٰ الإنسان حبُّ نوع من المعاصي، ورافق ذلك نصيبٌ من الجرأة والإقدام علىٰ المعصية، فملك قلبه، وسبىٰ عقله، وأطفأ نوره، فلم تنفع فيه تذكرة، ولا نجحت فيه موعظة، حتىٰ جاءه الموت وهو علىٰ ذلك، ومن أجل ذلك خاف السلف من الذنوب، أن تكون حجابًا بينهم وبين الخاتمة الحسنىٰ.

علىٰ أن سوء الخاتمة -أعاذنا الله منها- لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، وإنما تكون لمن له فساد في الأصل، أو إصرار علىٰ الكبائر، وإقدام علىٰ العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتىٰ ينزل به الموت قبل التوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطَّويَّة، ويُستأصل قبل الإنابة، فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة -والعياذ بالله-[1].

وأعظم الناس توفيقًا: مَن شمله الله برحمته، فيسَّر الله له توبة قبل رحيله، وأناب قبل انتقاله، وحاسب نفسه قبل ملاقاة ربه، فتخفف من أثقال أوزاره،

(١) انظر: «الجواب الكافي» (ص٢٨٩-٢٩١).

وقدِم علىٰ ربه وهو خفيف الظهر من الذنوب والمظالم.

وسبيل النجاة تَيَقُّن العبد أنه ليس بمستغنٍ عن ربه طرفة عين، وأنه إن وكله إلىٰ نفسه هلك، فيتوجه إلىٰ الله تعالىٰ بصدق اللجوء والتضرع والدعاء أن يحفظ عليه دينه، وأن يتوب عليه، وأن يثبته حتىٰ يلقاه وهو راضٍ عنه.

يَـا رَبِّ فَـضْلَكَ إِنَّ جُـودَكَ وَاسِـعٌ عَظُمَـتْ خَطَايَانَـا وَعَفْـوُكَ أَعْظَـمُ
فَاغْفِـرْ لَـنَا مَـا كَـانَ مِـنْ هَفَوَاتِـنَا إِنَّ القُلُـوبَ مِـنَ الخَطَـا تَتَـثَلَّمُ
يَـا رَبِّ وَارْزُقْـنَا شَـفَاعَةَ أَحْمَـدٍ صَـلُّوا عَلَـىٰ خَيْـرِ الأَنَـامِ وَسَـلِّمُوا

وفي آخر هذه القصيدة، ختمها بالثناء علىٰ الله سبحانه، ببيان سعة جوده، وعظيم فضله، وكبير عفوه، وطمع العبد في فضله ورحمته، مع الإقرار علىٰ النفس بأنها كثيرة الذنب، كبيرة الخطأ، وضمَّن ذلك الشكوىٰ إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ مما حلَّ بالقلب، من تهشمه بالذنوب، وتثلمه بالخطايا.

وإنما قدَّم بذلك من باب التلطف بالمسألة، وتمهيدًا لسؤال الله العفو والمغفرة، مع انكسار النفس، وافتقارها لله رب العالمين، وتذلل العبد وتخشعه، وهذا من أفضل ما يجعله المرء بين يدي مسألته لاستجداء ربه وخالقه، أن يُظهر ذله ومسكنته، وهذا كان حال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حين سؤاله ربه، فقد جاء في الحديث: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خرَجَ فِي الاستِسقَاءِ مُتَبَذِّلًا، مُتَوَاضِعًا، مُتَخَشِّعًا، مُتَضَرِّعًا»(١).

وكان ممَّا علَّمه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **لأمته**: أنَّ يقر العبد بذنبه حين سؤال ربه، لينزع عن نفسه رداء العصمة، ويعلن افتقاره بين يدي ربه، فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: «قال أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي**، قَالَ: **قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ**

(١) رواه أبو داود (١١٦٥)، وهو حسن، انظر: «مشكاة المصابيح» (١٥٠٥).

إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مِنْ عِنْدِكَ مَغْفِرَةً، إِنَّك أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»[١].

فإذا كان هذا في حق أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو مَن هو في الفضل والرتبة والسابقة، فغيره من باب أولىٰ.

ولذلك لما قدَّم الناظم بذلك، سأل الله بعد ذلك أن يغفر لعبده ما جناه من الذنوب، وما وقع فيه من الهفوات، لأنَّ الله سبحانه لا يتعاظمه شيء، فإن شاء سبحانه أن يغفر لعبده غفر له وإن كان مسرفًا علىٰ نفسه بالخطايا، لا رَادَّ لحُكمِهِ، ولا مانع لقضائه.

ثم تَوجَّه إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ طمعًا بفضله وكرمه، فسأله أن يرزق عبده شفاعة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة، حيث إنها منزلة عظيمة، وصفة غالية كريمة، أعطيت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبيان كبير فضله وكرامته عند ربه، ومَن كان من أهلها فقد فاز فوزًا عظيمًا، وإنما يسألها العبد من الله وإن كانت قد أعطيت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه لا يملك الإذن بها إلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمن شاء الله عَزَّوَجَلَّ دخل في الشفاعة، ومَن لم يشأ لم يكن من أهلها.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

ثمَّ ختم هذا النظم بالصلاة علىٰ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَا في ذلك من الأجور العظيمة، والبركات الكبيرة، وكفاية الهموم، ومغفرة الذنوب.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن صَلَّىٰ عَلَيَّ صَلَاةً؛ صَلَّىٰ الله عَلَيهِ بِهَا عَشرًا**»[٢].

---

(١) رواه البخاري (٨٣٤).

(٢) رواه مسلم (٣٨٤).

وصلاةُ الله علىٰ العَبد: الثناء عليه في المَلأ الأعلىٰ.

وجاء في الحَدِيث: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا، قال: **إِذَن يُكفَىٰ هَمُّكَ، وَيُغفَرُ لَكَ ذَنبُكَ**».

وفي لفظ: «**إِذَن يَكفِيكَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَا أَهَمَّكَ مِن دُنيَاكَ وَآخِرتِكَ**»[1].

ومعنىٰ قوله: «**أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي**»؛ أي: دعائي؛ معناه: أجعل لك دعائي صلاة عليك.

هذا ما تيسر كتابتُه من شرح قصيدة «**الوَاعِظة**».

أسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعله شرحًا مباركًا، وعملًا متقبلًا، وأن ينفع به وبأصله، وأن يجعله مدخرًا لي يوم لقائه؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وكان الفراغ منه في التاسع من شعبان، لعام ألفٍ وأربعمائة وواحدٍ وأربعين للهجرة.

وصَلَّىٰ اللهُ وسَلَّمَ علىٰ عبده ورسوله مُحمد، وعلىٰ آله وصَحبه أجمعين.

❀❀❀

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٣٥٧٤)، وهو حسن، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٧٠).

الفهرس

فهرس الموضوعات

مقدمة المؤلف ٥
قَصِيـدَةُ الوَاعِظَةِ ٧
شرح القصيدة.. ١١
العشق من أضر الأمور علىٰ النفوس.. ١٣
أضرار العشق ١٥
حال من يثق بالوعود الكاذبة والأماني الحالمة ١٩
اتبَاعُ الهَوَىٰ هو أصلُ كلِّ بَلِيَّة.. ٢٠
الفتنة بالنساء ٢٢
ذِكر الحِكَم والمواعظ والآداب التي سيق من أجلها هذا النظم ٢٤
النصيحة ٢٤
الهداية إلىٰ الحق والصواب من أعظم النِّعَم ٢٥
النصيحة لعموم الخلق ٢٦
التوسط في كل شؤون الحياة..٢٨
تنافس العقلاء إلىٰ الفضائل ٣١

اجتناب ما يشين من الصفات والأخلاق..... ٣٣
الحث علىٰ المُسَارَعَة إلىٰ الخَيرات ٣٥
اجتناب قول اللوَّام المثبط سبب لبلوغ المعالي ٣٦
الأماني رأس أموال المَفَاليس ٣٧
العزة سبب السعادة ٤٠
بذل المرء نفسه للئام والأنذال من أسباب الذل..... ٤١
تحريم النار علىٰ كل سهل ليِّن الجانب ٤٣
التواضع من العبادات التي تقرِّب العبد إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ٤٦
اجتنابُ الشكوىٰ والجزع ٤٩
الوفاء من شيم النفوس الشريفة..... ٥٢
آداب الكلام وضَوابطه ٥٨
الصدق من شيم النفوس العظيمة..... ٦٠
التَّجمُّل بالصمت دليل علىٰ صحة العقل وسلامته..... ٦٢
ما يجب علىٰ المرء أن يتأدَّب به إذا نطق ٦٤
ضوابط المزاح ٦٦
مصاحبة الأخيار تجلب الخير وتُنَميه..... ٦٨
التحذير من مصاحبة الأشرار..... ٧٠
الحَسَدُ من أخلاق اللئام ٧٢

حثُّ الشريعة علىٰ الجود..... ٧٥
البُخل من الأخلاق المذمومة ٨٠
الإنصَافُ باب إلىٰ العدل ٨٣
الحكم بالحق، واجتناب ما هو ضدُّه ٨٧
الإحسانُ إلىٰ الجار ٩٠
حُسن السمت ٩٦
الاستفادة من التجارب ١٠٠
جبر الخواطر ١٠٣
مخالطة الناس والصبر علىٰ أذاهم ١٠٦
لا سبيل إلىٰ السلامة من الأذىٰ..... ١٠٨
إرضاء الناس غاية لا تُدرك ١١١
سلامة الصدر ١١٤
تحصيل ما طمعت فيه النفس من الخير..... ١١٩
الفرق بين الكسل والعَجْز ١٢١
بذل الجهد في صلاح الأبناء ١٢٣
سرعة الأيام وانقضاء الأعمار ١٢٧
السفر إلىٰ الدار الآخرة والتزود من الخيرات ١٣١
سعة جود الله عَزَّوَجَلَّ وعظيم فضله ١٣٥
الفهرس..... ١٤١

*** صدر للمؤلف:**

- **كلمات من واقع الحياة.**
- **ولْيسعك بيتُك** «من أجل حياة زوجية هانئة».
- **نزهةُ الخاطر** «جولةٌ في رياض الأدب».
- **ضحيةُ معاكسة.**
- **وصايا للخطيب.**
- **بقلمي.**
- **مِنبريات.**
- **بدايةُ الفقيه.**
- **السيرةُ النبويةُ .. من الولادةِ إلىٰ الوفاة.**
- **لم تكتمل.**
- **التربية العاطفية للأبناء.**
- **قصيدةُ الواعظة.**
- **شرح قصيدة الواعظة.**

*** تطلب جميع المؤلفات من: دار الخزانة**

الكويت ت: ٩٠٩٠٩٢١١ - ٥٥٩٥٧١٠٣

*** عنوان المؤلف**

www.salemalajmi.com

Email:alajmi250@hotmail.com

@dr_salem_alajmi